منصور بوشناف

العلكة

رواية

دار الفرجاني

العلكة

«العلكة رواية نابضة بالحياة، إنها صورة سريالية لمجتمع
معزول عن العالم لكنه أكثر عرضة لتغيرات التاريخ»

هشام مطر

منصور بوشناف

كاتب مسرحي وروائي من مواليد ليبيا العام 1954. سجن لمدة عشر سنوات خلال السبيعنات والثمانينات من القرن الماضي نتيجة لنشاطه السياسي وكتاباته الناقدة، واشتهر من خلال مسرحياته التي حازت على عدة جوائز. **العلكة** هي روايته الأولى والتي سبق أن صدرت في طبعة محدودة عن دار ليبيا للنشر والتي أدارها الكاتب الراحل إدريس المسماري وتعرضت الرواية للمنع من التداول في ليبيا. صدرت الرواية بترجمتها الانكليزية العام 2014 عن دارف للنشر ببريطانيا كما ترجمت إلى الفرنسية العام 2016.

منصور بوشناف

العلكة

رواية

دار الفرجاني

دار الفرجاني
الطبعة الأولى 2021
جميع الحقوق محفوظة للكاتب منصور بوشناف ©

ردمك ISBN 9789775496775
رقم الإيداع: 23210 / 2014

9 ميدان الذهبي
منشيه البكري
القاهرة
جمهورية مصر العربية

Tel: +201001619295

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

بداية القصة

حين قرّب شفتيه من أذنها كي يهمس فيها، كانت عشر سنوات قد انقضت على افتراقهما، وكان عليه عبر تلك السنوات العشر أن يكابد الآما لا حدّ لها، وأن يئن تحت وطأة احساس ثقيل بالفراغ.

ظل يراها وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر، لعشر سنوات طوال.

مرت أيام وشهور وفصول وسنوات وهو يتسمّر تحت المطر وهي تبتعد ظل ينتظر توقفها ثم التفاتتها وركضها بإتجاهه. ولكنها ظلت تبتعد، يرفّ شالها الأحمر وشعرها الأسود على كتفيها، ماضية باتجاه الغروب.

كان العابرون ينظرون إليه باندهاش في البداية، وكان العشاق يرتبكون حين يكتشفونه متسمّراً قربهم، ثم صار ومع مرور الأيام جزءاً من الحديقة من الشجرة التي ظل يتسمّر تحتها لعشر سنوات طوال.

لعب بجواره أطفال وتهامس عشاق وتمت صفقات مخدرات ودعارة وخططت مؤامرات اغتيالات وقتل وخطف واغتصاب، وظل لا يرى شيئاً عداها وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر.

طال بالتأكيد شعر رأسه وذقنه وبلّت ملابسه ونساه أهله وأصحابه، نسته المدينة كإنسان وصار جزءاً من حديقة مهملة.

أثناء كل هذا كانت البلاد مشغولة بالعلكة، بدأ الجميع يستخرجون جوازات السفر ويشترون الدولار من السوق السوداء كما كانت الجرائد والراديو والتلفزيون يسمّونها ويتزاحمون أمام مكاتب الخطوط الجوية للسفر من اجل العلكة.

فجأة أصبحت العلكة شغل الناس الشاغل بل أن الامهات بدأن يسجّلنها في رأس قائمة شروط زواج بناتهن وبدا التجـــار الخفيّون «فالتجارة كانت عملاً ممنوعاً يعاقب عليه القانون ويسميه الاعلام سمسرة» يتعاملون بها كأرصدة مضمونة قد تنهار العملات ولكنها لا تنهار وأحتدمت نقاشات وأقيم ما يشبه الندوات السرّية عن العلكة وأرباحها وعن العلكة وفوائدها، وظل التلفزيون والجرائد وأحياناً مكبرات الصوت تكرر دون أن يسمعها أحد أن العلكة مثلها كمثل الشامبو مؤامرة إمبريالية ضد الاقتصاد الوطني.

العلكة أخذت قيمتها الفلسفية بعد عودة أستاذ الفلسفة حاملاً شهادة الدكتوراة في الفلسفة من فرنسا حيث درس سارتر واكتشف التشابه الغريب بينهما فلقد كان بإمكانه كما كان بإمكان سارتر رؤية السماء والأرض في نفس اللحظة بغض النظر عما إن كانت الرأس مرفوعة أو مطأطئة ولا علاقة لهذه القدرة بالفلسفة بل كانت نتيجة لحول غريب يتمتع به كلاهما.

العلكة وعلى يد أستاذ الفلسفة وإثر مقالته الشرارة كما أسماها محبّوه والمتحمسون له «الوجود العلكة» صارت موضوعاً فلسفياً، وانقسم مناقشوها إلى يسار ويمين، اليسار يرى أن الجنس البشري هو الأسنان والعلكة هي الزمن واليمين المتشائم أو العدمي كما أسماه اليسار كان يرى أن الوجود الإنساني هو العلكة والأبدية هي الأسنان والمضغ أزلي ولا نهاية له.

لم يكن لبطلنا علاقة لا بالفلسفة ولا بالعلكة كان عاشقاً مهجوراً يتسمّر تحت شجرة وسط حديقة مهملة، لا يرى شيئاً عداها وهي تبتعد، يرفّ شالها الأحمر وشعرها الأسود تحت المطر، ولولا زيارة عاشقين من كلية التربية قسم الفلسفة وادراكهما لوجوده متسمّراً تحت الشجرة وتطاير الذباب إثر إلقاء الولد لكتاب «الوجود والعدم» ثم تعال طنينه اثر إلقاء البنت لكتاب «الذباب» وتكدّسه طانا على وجه بطلنا المهجور لما دخل بطلنا عالم الفلسفة المتجهم ولظل مثلاً فلسفياً متعيّناً لأن أحداً لم يدرك وجوده ومعناه ولأنه بالتأكيد لا يدرك وجوده العلكة.

أستاذ الفلسفة كان ولحسن حظ «وجود بطلنا» يعيش مرحلة يمين مقالته الشرارة مما جعله يأتي سريعاً لمعاينة العيّنة الفلسفية والمستند الذي يثبت تأويله للوجود الإنساني الذي تلوكه أسنان الأبدية وليلقي كما لو كان «بوذا» لتلاميذه وبعد أن لفّ حول العيّنة سبع مرات منقرفاً ومبتهجاً في نفس اللحظة لأكوام الزبالة على الأرض ولصفاء السماء فقد كان يرى الاثنين في نفس اللحظة، قال بعد أن أشار بإصبعه إلى العيّنة «اكتبوا في كراساتكم أيها التلاميذ: المضغ أزلي ولا نهاية له» بكت البنت وأحسّ الولد برغبة عارمة في الانتحار أما الأستاذ فمضى مطاطي الرأس متأملاً السماء غاضاً عينه الأخرى عن زبالة الحديقة.

التي تركته «بطلنا» متسمّراً تحت الشجرة صارت العلكة تسليتها الأثيرة، كانت ومنذ أن تركته مبتعدة تحت المطر تعود كل يوم إلى بيتها ومعها العلكة، تقفل باب غرفتها بعد أن تستحم وتتعطر وتتمدد على سريرها وتبدأ في لوك العلكة، صارت العلكة ومنذ تركها له متسمّراً تحت المطر فعلها الأنثوي الأثير.

كانت تتمهل في فض قطع العلكة الأنيقة، تم تمرر القطعة على شفتيها بتمهل واستمتاع ثم يلتقطها لسانها لتمتص حلاوتها شيئاً فشيئا، لتبدأ بعد ذلك في فعل اللوك الناعم والبطيء.

كان اللوك فعلها الأهم للتناغم مع الحياة والكون فهو المكرور والمتجدد في نفس الوقت.

كانت تُنوّع النكهات وتجددها بالليمون أو النعناع او التفاح أو نكهات متجددة ومتنوعة ولوك ثابت لا يتغير حتى أضحت العلكة ولوكها فعلها الأنثوي الأهم والأكثر ملذات وديمومة.

لم يكن الحصول على العلكة سهلاً بالتأكيد، كان عليها أن تقيم علاقات ما كانت لتقيمها لولا ندرة العلكة في تلك الأثناء وتمسكها العنيد بأنوثتها فلقد تعرفت على سماسرة ومرابين ومضيفين و طيارين وعاملين بالاقتصاد والأمن والحرس البلدي وغيرهم الكثير وكل ذلك من أجل العلكة.

ولكن ما القصة

كما في رواية «الوسادة الخالية» للكاتب المصري الراحل إحسان عبد القدوس كانوا ثلاثة أولاد وثلاث بنات في حديقة إن لم تخني الذاكرة زوجان منهما انسجما وثرثرا ووصلا للحديث عن الحب، وظل الزوج الثالث وهو مكون من بطلينا صامتاً يطاطيء الولد رأسه شاعراً بالقرف وتحدق البنت في الفراغ.

البنت التي اسمها «فاطمة» والتي هي بطلتنا كانت ابنة عائلة متوسطة وصلت إلى الجامعة وتم تنسيبها بقسم علم الاجتماع أما الولد واسمه «مختار» فقد كان ابن عائلة كبيرة عرفت لذائذ السلطة والأموال فلقد كان أبوه من رجالات البوليس الكبار في العهد الملكي.

انسحب الزوجان الأخران وظل مختار وفاطمة يجلسان صامتين، يمد ساقيه الطويلين وتنكمش على نفسها في كرسي الحديقة الأحمر.

لم ينبس بكلمة لها ولم تنسحب من جواره ولم يلتفت اليها إلاّ مرّة واحدة أدرك خلالها أن التي بجواره ليست إلاّ واحدة من بنات العائلات البسيطة التي بدأت تدبُّ على وجه الارض والتي يسهل اصطيادها، أما هي فلقد كان وجوده بجوارها باعثاً على التوجس والمخاوف التي ظلت تساورها كما التقت بأمثاله.

نهضت فنهض ونظر في عينيها باحثاً عن لمعان الشبق المبهر الذي تحاول البنات دائما اخفاءه بالنظر الى الأرض والذي يظل الذكور يحاولون التقاط أشعته الآسرة لتتم بعد مناقشة التفاصيل.

أطال التحديق في عينيها ولم تهرب بهما إلى الأرض ولم يكن ثمة ذلك اللمعان ولكنهما كانتا آسرتين.

كان عمق العينين وسوادهما وكان ذلك التردد الاقتراب لخطوة والتراجع ايضا لخطوة ما جعله مشدوداً لعينيها. كانت قصيرة وصغيرة كل شيء فيها حتى تبدو بنت اعدادية لا غير. وود ورغم صغر كل شيء فيها أن ينهار من طوله ليخبيء وجهه بين عنقها وشعرها الفاحم. لم يحدث ذلك بالتأكيد فلقد أصابته عيناها بالتردد.

حاولت هي أن تخفض بصرها هرباً من عينيه الباحثتين عن أسرارها وظلت متسمّرة تراقب عينيه وهما تنقبان فيها بحثاً عن بئر وجودها السرّي.

أدرك أنها ورغم كونها من العائلات التي بدأت تدبُّ على وجه الأرض كما ظل أبوه دائماً يقول إلا أنها لم تكن سهلة الاصطياد كما أعتقد للوهلة الأولى، كان ترددها سلاحها الذي يبدو أن السماء منحتها إيّاه، لتظل تلك الأنثى السهلة الممتنعة، ظلت تقبل من البعيد مندفعة باتجاهه دائماً، يتطاير شعرها الأسود الفاحم وتشرق ابتسامتها، وظل يهم دائماً

بالجثو على ركبتيه وبسط ذراعيه ليحتوي جسدها الصغير وليخبيء رأسه بين عنقها وشعرها وظلت دائماً تتوقف فجأة قبل ذراعيه بقليل وتمد له يدها وتصافحه كغريب.

يدها الصغيرة توشي لروحه وهي تصافحه بقرب انهيار سدود ترددها ولكنها لا تنهار، لتبدأ من جديد، مندفعة بتطاير شعرها ولا تصل.

ظل ينتظرها كل يوم تحت أقواس «الداخلية» مستعيناً بالمعمار الايطالي لمقاومة شمس الصحراء الحارقة صيفاً وزوابع المطر العصبي الذي يهاجم طرابلس شتاءاً كان قد تولع بالمعمار الايطالي الطرابلسي، اثر ولعه بها.

كانت تقوده إلى الحديقة ليجلسا هناك، وكان يقودها الى المتحف حيث بامكانهما الاختباء خلف التماثيل الرومانية الضخمة ويحاول كل مرّة دونما جدوى تقبيلها لتدفعه وتبتعد مختفية بين التماثيل حتى وجد نفسه وهو يبحث عنها أمام التمثال الذي صار جزءاً من وجوده، كان تمثال امرأة يعود الى القرن التاسع عشر وكان وحيداً وملقياً باهمال شديد خارج قاعات العرض، كانت امرأة التمثال تتكيء على جدار ملقية برأسها الى الخلف مغمضة عينيها زامّة شفتيها في انتظار قبلة لا تجيء، كان التمثال يبدو له دائماً كائناً حقيقياً بل ربما الأكثر تحققاً في المتحف بل في طرابلس كلها.

ظلت تحدثه عن الحراك الاجتماعي أو بالأحرى تردد محفوظاتها من مناهج دراستها بالجامعة، وظل يحاول تقبيلها كل مرّة وظلت تبتعد مختفية بين التماثيل ليبحث عنها حتى يصل إلى التمثال ويقف هناك ويحسّ بذلك الامتلاء العاطفي المذهل الذي يمنحه إيّاه حضور امرأة التمثال وذلك الفراغ الثقيل الذي يلقي به على كيانه غيابها بين التماثيل.

التمثال

كان التمثال وبتفاصيله الضاجّة بالألم وبالشهوة والحنين والتشوف، نتاج سنوات اعتقال في سجون باشا طرابلس، لأسير ايطالي....

لم يعره الايطاليون اهتماماً وبالتأكيد لم يعره الانجليز ولا الملكيون ولا الثوريون أي اهتمام فالايطاليون كانوا يبحثون عن أمجاد عسكر روما القديمة في ليبيا والانجليز لم يكن يعنيهم الماضي فلقد أوكلوا شأنه للسنوسيين والسنوسيون كانوا يرون التماثيل وصنّاعها حطب جهنم، ولولا شعرة معاوية التي ظلت بينهم وبين الطليان بعد الاستقلال لحطموا كل التماثيل!! على عكس كل هؤلاء كان الثوريون، مزيجاً من كره روما القديمة ومن كل أشكال الاحتلال وأصنامه كانوا يرون التماثيل ضرورة ووسيلة لتصوير أمجاد الامة العربية، كانوا ضد التماثيل ومعها، فهم حين تكون تماثيل رومانية يسمونها أصناماً وحين تكون تماثيل فينيقية أو تماثيل حديثة تصور موضوعاً عربياً يسمونها نحتاً ويردفون الاسم بفعل يصور....الخ.

تمثال المرأة الزامّة شفتيها والذي صار جزءاً هاماً من وجود بطلنا المنحدر من صلب ضابط بوليس سنوسي كبير يعيش زمن «مع التماثيل وضدها» عبر ومع ليبيا ومنذ القرن التاسع عشر أزماناً محفوفة بالمخاطر، كانت تهدد وجوده بالفناء، فحين اكتشف حراس سجن السرايا الأسير ينحت أوقفوه عن العمل الرذيلة كما كانوا يعتقدون وأبلغوا باشا طرابلس بما كان يجري في سجنه من فعل محرّم ولم يلق الباشا اهتماماً للموضوع فتركوا الأسير يحفر خندقه باتجاه جهنم. ولو أنهم أبلغوا الباشا في نوبة من نوبات تديّنه لأحرق الأسير والتمثال. اكتشف عساكر من سيشيليا التمثال منذ الأيام الأولى لدخولهم طرابلس محتلين، اكتشفه أحدهم في ركن من أركان السرايا الحمراء وأشار الى رفاقه أن يحطموا أحد أرباب الوثنيين الليبين فلقد كان يعتقد أن الليبين شعباً وثنياً أرسله الرب لهدايتهم الى طريق الرب. ولولا مجون وتفسخ أحد الجنود السيشليان لتمّ تحطيم التمثال ولفقد بطلنا عنصراً من عناصر وجوده فالماجن السيشيلى أوقفهم قائلاً دعوه لي وظل يتسلل كل ليلة ليعانق التمثال ويقبل شفتي المرأة التمثال ويستمني جاثياً على ركبتيه أمامها...

العسكري السيشلياني قُتِل برصاص رفاقه الايطاليين بعد أن أصيب بلوثة جنون وصار يتنقل عارياً وسط السرايا الحمراء ولا يخجل من ممارسة العادة السرية أمام التمثال حتى وان كان أحد الجنرالات الطليان يقف على رأسه ويصدر له الأمر بالهجوم. دفن السيشلياني كبطل وتُرِك التمثال قابعاً في ظلام السرايا الحمراء.

بعثات التنقيب عن أثار روما في ليبيا أخرجت التمثال من قبو السجن وألقت به في ركن من أركان السرايا الحمراء بعيداً عن الانظار فلم يكن يشكل أية اهمية بالنسبة للباحثين عن أمجاد العسكر الرومان في واحات الصحراء الكبرى.

مع الادارة البريطانية ثم الملكية السنوسية ظل التمثال ملقياً حيث تركه الطليان ولم يلتفت له إلاّ عساس ليبي ظل يتأمله مفكراً هل ثمة نساء بهذا الجمال؟ وأخذ يبتعد عن زوجته يوماً إثر يوم ثم ترك البيت وأخذ يطارد الايطاليات يوم

الأحد أمام الكنيسة وهو مخمور يهذي لينتهي به المطاف نزيلاً بمستشفى المجانين، فلقد سكن بإحدى الحدائق وصار مصدر ازعاج للإيطاليات وللبوليس.

أحد الجنود الامريكان التقط له رفاقه المخمورون صورة وهو يقبّل المرأة التمثال وأوشك أن يوقع التمثال ويهشمه.

المسؤلون الثوريون عن المتحف بعد قيام الثورة لم يلقوا للتمثال أي اهتمام في البداية وأبقوه حيث هو ثم فكروا في ترحيله إلى لبدة الكبرى مع سبتيموس سيفيروس ولكنهم تراجعوا ليرحل سبتيموس وحيداً إلى مسقط رأسه وليظل التمثال حيث تركه الطليان، خارج كل الأجنحة فلا هو في الجناح الروماني ولا اليوناني ولا الاسلامي، بل وحيداً وسط ممر بين وخارج كل العصور. ادارة المتحف تدافع عن وجود التمثال بالممر لأنه يستحيل تصنيفه، فلقد نحت في عهد لم يكن فيه نحت، ولا علاقة تربطه بفترات ومراحل النحت الاخرى الموجودة بالمتحف والبلاد.

احد الكتّاب الساخرين كتب أن هذا التمثال يشبه زانية بنت زانية لا يُعرف لها أب ولا أم.

الأسير الايطالي المجهول الاسم والذي أسره البحارة الليبيون في القرن التاسع عشر، كان وعلى ما يبدو موهوباً وعلى دراية بفن النحت وربما كان رومانتيكيا ضالاً، قبل بالمغامرة على الشواطيء الليبية ليضيع كما ضاع رومانتيكيون كثيرون قبله، وهم يلهثون خلف الضوء والظل والاسطورة في الصحراء الكبرى، فلو كان قرصاناً أو تاجراً او جاسوساً لتمّ اطلاق سراحه مقابل فدية كما كان يحدث دائماً في أيام الباشوات الترك.

كانت المرأة التمثال ورغم العينين المغمضتين ورغم الشفتين المتشوقتين لقبلة لا تجيء، كانت ورغم الاستسلام الظاهر على الوجه، تبدو نزقة ومندفعة كداود «مايكل أنجلو»، كانت مزيجاً غريباً ونادراً بين «داود، انجلو» و«موناليزا، دافينشي».

الأسير كان على ما يبدو يتمتع ببعض الساعات في حدائق السرايا الحمراء، أو ربما كان يعمل كجنائني أو كخادم ينظف الحدائق أو ربما الحمّامات مما جعل بامكانه تهشيم بعض التماثيل الرومانية أو اليونانية وطحنها للحصول على المواد الخام لتمثاله الأسير، أو ربما حصل عليها من بقايا الأقواس الرومانية التي كان الأتراك يستخدمونها في بناء المساجد والقصور، الاحتمال الأخير أقرب فمن المستبعد وجود تماثيل في السرايا الحمراء في القرن التاسع عشر، أثناء الحكم التركي.

التمثال ظل يعبر الأزمان منذ ذلك الوقت وحتى الآن مجهولاً ومنسياً ومدمراً لمن يدرك وجوده.

ادراكه كان يحدث دائماً من أفراد، ليظل مجهولاً من الجميع، ومنسياً من عاملين بالسرايا الحمراء يرونه كل يوم ولا يدخل نطاق ادراكهم.

بطلنا كان من الأفراد الذين أدركوا وجود التمثال وارتبط وجودهم به، فلقد ظل ومنذ اكتشافه صدفةً له يقف أمامه كل يوم، يطارد بطلتنا بين التماثيل الرومانية العملاقة وتضيع منه دائماً ليصل الى المرأة التمثال ليقف مسحوراً باندفاع الجسد وجرأته وبإستسلام الوجه وتشوف الشفتين للقبلة.

كانت بطلتنا قد صارت مجرد خطوة باتجاه التمثال بالنسبة له، ولولا اندفاعها وتطاير شعرها، لولا نزق جسدها وهي تقبل باتجاهه لاكتفى بالتمثال، ولظل يقف أمام التمثال وقد يحضنه ويقبّله لينتهي كما انتهى من قبله مجنوناً يهذي قابعاً في مستشفى المجانين.

كانت لحظات قدومها ما ظل يشده لها وما ظل ينقذه من مستشفى المجانين.

كان يصل التمثال باحثاً عنها وكان يبسط ذراعيه لمعانقة التمثال وهي تقبل دون أن يجدها ودون أن يعانق التمثال، كان وجوده وقبل عودة أستاذ الفلسفة من فرنسا ومنذ تعلقه بها واكتشافه للتمثال قد صار «وجود علكة».

الحديقة

كان يقودها إلى المتحف وكانت تقوده إلى الحديقة حيث كان بإمكانهما أن يتحدثا، وحيث كان بإمكانها أن تحسّ بحضور الرجل والمرأة فيهما، كان ورغم صمته يبدو في الحديقة أكثر اكتمالاً وأكثر قرباً منها، كانت الحديقة ورغم بؤسها، رغم العلب الفارغة وأعقاب السجائر، رغم المتطفلين وباعة الحشيش والخمر ورغم مداهمات الشرطة مكاناً أرحب وأنسب للقاء عاشقين من المتحف، لذا ظلت تجرّه إلى الحديقة، تنظف الكرسي الأحمر بمنديلها وتدعوه للجلوس، لتحسّ بوهج روحه وهو يخترق جسدها باحثاً عن بئر وجودها السرّي.

الحديقة كانت تمنحها فرصة ترتيب المكان فتجمع النفايات المتراكمة تحت الكرسي وحوله وتلقي بها بعيداً، بل وصل بها الأمر الى احضار بذور أزهار وورود وذرّها حول الكرسي وحمل زجاجة ماء كل يوم لريها دون أن يصيبها اليأس من فشلها المتكرر إثر نوم السكارى والمتشردين عليها ودهسها في مهدها بأجسادهم القذرة.

كانت تستند إلى جواره إلى مسند الكرسي الأحمر مغمضة عينيها زامّة شفتيها مستنشقة رائحة العشب والشجر متشوقة لقبلة لا تجيء.

الحديقة لم تكن كما التمثال بنت القرن التاسع عشر، ولكنها مثله عبرت مع طرابلس أزماناً وعصوراً، ففي العصر التركي كانت مزرعة لفلاحين فقراء أجبرهم أحد الولاة الترك على بيعها له، ليحولها الى منتزه خاص للسهرات الصيفية، وشهدت طبالين وموسيقين وراقصات ومغنيات ومهرجين، ومارس فيها الباشاوات كل أنواع اللذائذ وأرتشف عشبها وترابها كل أنواع العرق البشري من الترك والتركيات والترك والاروبيات والترك والافريقيات، وأرتشف عشبها وترابها كل أنواع الخمور المعروفة في تلك الأزمان وفرّت عصافيرها لصهيل الباشوات وتأوه الجواري ليلاً ونهاراً، وتدلت من أشجارها أجساد منتحرات تم اغتصابهن من عسكر الترك وباشواتهم وعرفت شعراء قوادين جاءوا من أقصى البلاد يسعون لبيع المديح تكسّباً وشهدت حفلات زار ورقص وشعوذة محتالين متخفين في هيئة صوفيين وداهمتها ولمرات عديدة «للات» مطعونات بخيانات أزواجهن الباشوات.

دمرت لمرات عديدة إثر الثورات وإثر غزوات البدو وغزوات الأساطيل الاوربية لطرابلس وأعيد تعميرها لمرّات عديدة وغمرها البحر خمس مرّات ومرّات لا يعرف عددها غمرتها فيها السيول، وكان لكل تلك الحوادث والكوارث ضحاياها من الطبالين والموسيقيين والمشعوذين والراقصات والغواني وأيضاً من العسكر والموظفين وشيوخ القبائل الباشوات، وظلت وكما يتردد في الحكايات الشعبية تعجّ في الليل بأرواح القتلى والمنتحرات واللات المطعونات بغدر الأزواج، وكان شبح أحد الضباط الترك وهو يطارد شبح باشا عار إلاّ من طربوش على رأسه لايزال يظهر حتى اليوم، والضابط وحسب ما يحكى قتل الباشا هنا بهذه الحديقة عندما عرف أن الباشا أغوى زوجته وأخذت تأتي إلى هنا عند غيابه بالدواخل لجمع الميري من الليبيين.

فاجأ الضابط الباشا وهو يضاجع زوجته على العشب عار إلاّ من الطربوش على راسه فقتله وهربت الزوجة عارية وسط المزارع ولم يستطع اللحاق بها فقد قتله العسكر.

قصف المدافع الايطالية قضى على منتزه الباشاوات، وشهد مواجهات طاحنة بين الليبيين والطليان وشرب ترابه دماء ليبيين وطليان وتفتحت فيه رغم القتل والدمار زهور حمراء وزرقاء وبيضاء من البقرعون والاقحوان، وتضوعت عطورها ملتهبةً حارةً كنزيف جرح عميق، ورغم جمال الزهور والورود إلاّ أن الليبيين ظلوا لا يحبون الاقتراب من المكان عدا امرأة تركية ظلت تتجول عارية في الليل وتختفي في النهار حتى عثر عليها في العام الرابع للإحتلال ميتة.

الطليان وبعد القضاء على المقاومة، شرعوا يعدون طرابلس للطلينة، فبدأوا يؤسسون المرافق التي تحتاجها المدن الايطالية من مراكز البوليس إلى الادارات الحكومية إلى البارات والكازينوهات، إلى المسارح والمتاحف والمصانع وكانت الحدائق أحد المكونات الأساسية لمدن الطليان في شاطئهم الرابع كما كانوا يعتقدون وكانت هذه الحديقة واحدة من تلك الحدائق التي أنشأها الطليان على أنقاض منتزه الباشاوات الترك الذي أنشاه الباشا التركي على أنقاض مزرعة فلاحين ليبيين ورثوها عن أجداد أحترفوا الزراعة وظل أحفادهم يحترفونها جيلاً بعد جيل حتى قرار الباشا بأخذها وتحويلها الى منتزه ليلي ماجن.

صمم الايطاليون الحديقة وفق متطلبات مواطنيهم، وجندوا لتمهيدها وزراعتها عشرات الليبيين وإبلهم وحميرهم لتناسب مدينة ايطالية بشاطئهم الرابع كما كانو يقولون أو موضع الجزمة الايطالية التي ظلت معلقة عبر تاريخها تخشى بلل المتوسط كما كانوا يؤمنون.

إلى جانب الإيطاليين كان عدد قليل من الليبيين من روادها، فلقد كان البوليس الايطالي يمنع المتشردين، والمتسولين من ارتيادها والجلوس فيها، كان الليبيون الجدد كما يمكن تسميتهم في تلك الفترة الرواد الليبيين الوحيدين للحديقة وهم شباب ليبيون، اختلطوا بالإيطاليين وبدأوا في تقليد نمط الحياة الإيطالية ولولا سمرة سحناتهم والطرابيش التي كانوا يصرون على ارتدائها لبدو لأول وهلة إيطاليين حقيقين. كان منهم الشعراء وأبناء التجار وأبناء العاملين بحكومة الاحتلال، وذوي الاهتمامات السياسية وبالتأكيد البوليس الخفية كما كان الليبيون يسمون المخابرات في تلك السنوات.

الحديقة صارت مكاناً ايطالياً حقيقياً ولولا بعض النخل الليبي، وبعض العمال الليبيين بها والليبيين الجدد لما شك المرء وهو يقف وسطها في أنه في حديقة في ايطاليا.

نجت الحديقة من التدمير، طوال الحرب العالمية الثانية وذلك أمر يدعو للدهشة بالتأكيد. وظلت هادئة أثناء عهد الادارة البريطانية في البداية، ولم يجد عليها الا تواجد عاهرات ليبيات يرتدين الزي الليبي، ويتهتكن على الطريقة الليبية التي

كان لوك العلكة أهم مظاهرها، فكانت الواحدة منهن تجلس على كرسي بالحديقة وتشرع في اللوك بعصبية حتى يلتفت لها زبون ليبدا لوكها في التباطؤ والانشراح، أغلبيتهن كن يحاولن اصطياد الجنود الانجليز، رغم استنكار بعضهن الآخر الذي ظل وفيّاً رغم كل شيء للذكور الليبيين.

الحديقة وكما أسلفت ظلت هادئة أثناء الادارة البريطانية ولم يعكر هذا الهدوء إلاّ حادث قتل احدى العاهرات على يد ابن عمها الذي جاء من احدى القرى بحثاً عنها حتى عرف مكانها «الحديقة» ليتربص بها ويقتلها طعناً بخنجر، ثم اطلاق النار على المتظاهرين الذين تجمعوا بها للانطلاق في مظاهرة تطالب بالاستقلال.

الانجليز لم يترددوا في اطلاق النار واصابة عدد منهم. بعد هاتين الحادثتين عادت الحديقة لهدوئها الانجليزي وظلت كما كانت مكاناً للمتشردين والعاملين بالسياسة وبالتأكيد للعاهرات المتلهيات بلوك العلكة.

بعد سكرة مندوب هاييتي التاريخية في الأمم المتحدة وترجيحه للأصوات التي توافق على منحنا الاستقلال، رغم أنه كان من المفروض حسب الترتيب الدولي في كواليس الأمم ألا يرفع يده مع ولا ضد استقلالنا الوطني، إلاّ أن السكرة فعلت ما لم يخطط له في الكواليس. بعد سكرة مندوب هاييتي التاريخية، أطلق الليبيون اسم «ادريان بيلت» مندوب الأمم المتحدة الذي أوصى في تقريره بمنحنا الاستقلال على شارع خلف الحديقة مباشرة ولم يمنحوا مندوب هاييتي العظيم أيّاً من شوراع الاستقلال إلاّ أن الحكومة السنوسية تسامحت مع تجارة الخمور اعترافاً بفضلها الكبير في تقرير مصيرنا.

الحديقة التي صارت تتكيء على «ادريان بيلت» نعمت بالهدوء في بدايات عهد الاستقلال ولم تشهد إلاّ حملة من البوليس الوطني على العاهرات، ليس لمنع الدعارة وانما في اطار تنظيم البلد ومؤسساتها وكانت إعادة الدعارة الى مواقعها المخصصة لها أي إلى شارع الفيلسوف العربي الكبير «الكِندي» الذي كان يحمل قبل الاستقلال اسم «فيا جلدوني» واحدة من خطوات تنظيم الموارد وادارتها، فلقد تشتت العاهرات نتيحة للحرب وغادرن شارع الفيلسوف «الكِندي» وصرن يتخذن من الحديقة مكاناً لنشاطهن المهني ولم يكن ذلك مناسباً بالتأكيد، كان التوطين والاستقرار من أهم أولويات حكومة الاستقلال لتأسيس الوطن الحديث.

بعد عشر سنوات من تلك الحملة على العاهرات والتي كانت وكما أشرنا موقعة من معارك التأسيس الحديث، شهدت الحديقة حادثة أخرى لها علاقة غير مباشرة ببطلنا، حيث شهدت مصادمات بين بوليس الملك وطلبة المدارس والجامعة أصيب فيها بعض الطلبة برصاص البوليس وأصيب فيها بعض البوليس بحجارة الطلبة وكان والد بطلنا ضابطا متحمساً ومخلصاً لتاج مليكه ولأمن حكومته ولذا أطلق النار على الطلبة بغيظ شديد وأصابه الطلبة بحجارة على جبهته، ووقعت قبعته بتاجها الاصفر على الأرض وأسالت من جبهته الدماء.

والد بطلنا والذي لازال يتمتع بشباب غريب، والذي وبعد خروجه من المعتقل الذي أودعه فيه الثوريون للتحقيق في ملفات بوليس العهد الملكي، ظل رغم الزمن الطويل الذي مرّ على حادثة إطلاق النار على الطلبة، يكره تلك الحديقة، لأنها ظلت تذكّره بمشهد تهاوي الأجساد الشابة نازفة على العشب، وهو غير نادم ولا يشعر بأي ذنب، ولكن المشهد يصيبه بالضيق والخوف.

التهاوي على العشب ظل المشهد الأكثر مقتاً، وظلت هذه الحديقة بالتحديد المكان الأكثر جلباً للتعاسة بالنسبة له. ظل مشهد الحديقة حتى وهو يتسلى بسقاية او تشذيب العشب في مزرعته، يصيبه بالضيق والاحساس بالخوف.

الحديقة أصابها الاهمال، فصارت مكبّا للزبالة بعد تأميم شركة النظافة وتحويل أعمالها للقطاع العام، الذي لم يستطع توفير العمال ولا المال لهذه المهمة المعضلة، فالثوريون وبرومانتيكية زائدة كانوا يأنفون بالليبي عن تنظيف الزبالة ويعتبرونها عملاً لا يليق بمواطن سيد. فكيف يمكن للسيد ان يكون زبّالا؟ وهذا السيد كان بالتأكيد بحاجة لزبّال وبحاجة لعمال حدائق واستيراد العمالة من الخارج واستنزاف الموارد المالية كان بالنسبة للثوريين عملاً منافياً لاستراتيجية الاكتفاء الذاتي. لقد تصارع الواقع والأفكار وكان الكيد على هذه الحديقة.

الحديقة ورغم اهمالها ظلت ملاذاً لاصناف شتّى من البشر، فكان يأتيها المثقف كي يقرأ والشاعر كي يقول الشعر والعاشق كي يلتقي حبيبته وبائع الحشيش والمخدرات كي يوزع بضاعته، الغريب أن تجار الخمر لم تعرفهم الحديقة بشكل كبير، ولم تعرف إلاّ حالات نادرة تم ضبطها من الشرطة لقد ظلت الحديقة ورغم كل الظروف حديقة.

الأب

لم يكن الأفندي عمر كما ظلت طرابلس تعرفه منذ ستينيات القرن العشرين، ابن طرابلس مولداً ولا أصلاً، فلقد جاءها بوليسا نفراً، جنّده الانجليز في الخمسينيات وورثه الملكيون بعدهم، كان يحب الملك ويعتبره رجلاً مباركاً أو «مرابطاً» كما يسمي الليبيون رجال البركة، ورغم أن الافندي عمر لم يكن متديّناً وكان سكّيراً وأحد زبائن شارع الفيلسوف العربي الكبير «الكِندي» في بدايات مسيرته المهنية إلاّ أنه ظل يؤمن ببركة الملك، وبصيام رمضان وبصلاة الجمعة.

هذا التناقض جعله يسكر حتى الفقدان ليلة الجمعة وينهض رغم الصداع ويستحم ويتوضأ ويمضى إلى صلاة الجمعة خاشعاً خشوعاً حقيقياً، وجعله أيضاً يطلق النار بشراسة على الطلبة ويبكي بكاءً مُرّاً أمام جثث ضحايا المرور.

الأفندي عمر لم يكن عريض المنكبين ولا قوي البنية كما قد يتخيل البعض ضابط بوليس ملكياً، كان نحيلاً وطويلاً أسمراً، حافظ حتى وبعد نهاية الملك وعهده على ذلك الولاء والاخلاص لروح الملك ولعهده المبارك كما كان يسميه.

رغم المعاملة الحسنة التي لقاها من الثوريين الذين كان بإمكانهم قتله وبتأييد شعبي شبه كامل إلاّ أنه ظل لا يحبهم ويراهم عامة لم يخلقهم الله للحكم ولا لإدارة الأمور.

تركوا له مزرعته وقصره وراتبه التقاعدي، وبل ومنحوه تسهيلات مصرفية لتطوير المزرعة، لقد ظل ورغم كرهه الشديد للثورة ورجالها، ينعم بمزايا ممتازة، تفوق بالتأكيد مزايا بعض الثوريين.

الأفندي عمر ورغم بلوغه السبعين ظل يحافظ على متناقضاته القديمة فظل يحافظ على كؤوس سهرة الخميس وعلى النهوض يوم الجمعة رغم الصداع والذهاب الى المسجد لأداء صلاة الجمعة، الجديد الذي طرأ على عادات الافندي عمر بعد الثورة وبعد انزوائه في مزرعته، بعيداً حتى عن زوجته وابنه الوحيد «بطلنا» كان الولع بجيل جديد من بنات الهوى وبالسهرات الموسيقية والرقص الشرقي.

ترتيب السهرات واختيار البنات المناسبات لذوق الأفندي عمر والذي شهد في السنوات الأخيرة تغيراً دراماتيكياً فلم يعد مولعاً بالسمينات وبالأذرع الأنثوية السمينة والمتهدلة ، ولا بالصدور الضخمة التي كان يحب أن يخبيء رأسه بين أثدائها المتداعية. ترتيب السهرات واختيار البنات النحيلات الظريفات المجيدات للرقص الشرقي تولته «غويلية» كما كانت تسمى في آخر أيام شارع الفيلسوف العربي الكبير «الكِندي» والتي عرفها الأفندي عمر منذ ذلك الوقت أعني آواخر الستينيات من القرن العشرين، وغويلية كانت احدى نزيلات شارع الكِندي، وكانت نحيلة وسمراء ولم تحظى إلاّ بالقليل من الزبائن في ذلك الوقت مما جعلها تقوم بدور الخدمات للنزيلات وللزبائن لذا لجأ لها الأفندي عمر للقيام بهذه الخدمة التي صارت أهم شيء في حياته الحديثة.

غويلية لجأت لبائع خمور لتوفير البنات إلى جانب توفير الخمر بالتأكيد.

تصل البنات كل يوم خميس بعد المغرب بقليل إلى مزرعة الافندي عمر، ويشرعن في الرقص والغناء، ولا يخرج عليهن الافندي عمر إلاّ بعد وصولهن وشروعهن في الرقص والغناء بساعة كاملة، يمضيها مع غويلية ولا أحد يعرف ما الذي يجري بينهما في تلك الساعة.

بعض البنات يقلن إنها كانت تطعمه مقويات من اللوز والعسل، وبعضهن يقلن إنها كانت تدلك مواطن في جسده لتدفع الدماء إليها لتشتعل فيها شرارة الشبق والشهوة. أما البعض الآخر فيقلن إنها كانت تحاسبه على أجورهن، والأقرب أنها كانت تفعل معه كل ذلك.

مزرعة الأفندي عمر كانت تنتج الدجاج والبيض والحليب، وكان قد قرر أن يستمتع ببيضها وأفراخها وحليبها رقصا وغناءا، وبنات صغيرات متماسكات الاجساد.

ليلة الخميس تبدأ منذ قدوم البنات وتبلغ ذروتها برقصة الأفندي عمر والكأس مترعة على رأسه لتنتهي بجرّ إحدى البنات رقصاً إلى مخدعه وتجريدها مما عليها من ملابس والنوم برأس مخبأة بين فخديها الساخنين وبأنفاسها المخمورة اللاهثة بين فخديه المتوقسين الباردين، ويحلم كل خميس بنفسه وهو يصغر ويصغر حتى يغدو نطفة تسبح في ظلام دامس أليف. ليصحو منتصف النهار ويغــسل بدنه و يعطره بالمسك والعنبر ويكسوه بالأبيض ويمضي للصلاة وطلب الرحمة والمغفرة لحياة الليلة الفائتة.

عشر سنوات من هذه «النوتة» المتكررة كل خميس وجمعة، مضت منذ التغير الدراماتيكي الذي طرأ على حياة الأفندي عمر وعلى تذوقه للذائذ النساء، مرّت حين وصلت بطلتنا إلى المزرعة لأول مرّة، ملقية خلف ليلتها تلك، الجامعة والحب، يتدلى من عنقها شالها الأحمر ويدثرها معطفها الأسود، تلوك علكة بطعم الليمون اللاذع، ويلوكها الفراغ، كانت قد أحست وهي تغادر الحديقة تاركة إيّاه «بطلنا» خلفها بروحها وهي تسيح نزفاً من ثقوب رصاص أطلق من داخل جسدها بإتجاة الحديقة، ليمضي جسدها خاوياً فارغاً مثيراً لجلبة برميل فارغ يتدحرج، لافتاً ورغم قصره وصغر كل شيء فيه أنظار زبائن اكتشفت وجودهم وهالتها كثرتهم في شوارع طرابلس، وهالها عدد البراميل امثالها وحجم الجلبة التي لم تكن قد سمعتها من قبل.

ركبت تاكسي توقف دون أن تشير له بالوقوف، قالت له حين سألها إلى أين؟ إلى الفلوس! فمضي دونما كلام حتى «غويلية» التي وبعد أن تفحصتها وتحسست نهدها الأيمن دفعت للتاكسي خمسين دينارا ولها خمسين وجرّتها من شالها الأحمر إلى داخل المزرعة.

لم تشعر بالارتباك وهي تدخل وحيدة على مكان مجهول، لا تعرف عنه شيئاً، ولقد طمأنها أكثر الدفع المقدم وأحست بسهولة اللعبة، كانت في عجلة من أمرها وكانت تريد أن تنهي مهمتها بأسرع ما يمكن، لذا سألت مباشرة عن غرفة النوم، ولم تعلق غويلية على سؤالها بل قادتها الى غرفة فسيحة يسودها الوردي.

جلست على حافة السرير متجنبة النظر الى المرأة، ثم استلقت مغمضة عينيها منتظرة زبونها الذي كانت تعرف أنه بعمر أبيها، دون أن تعرف من يكون، فلقد عرفت من سائق التاكسي أن الزبون كما سماه كان شيخاً وأنه لن يؤذيها وأن المسألة لن تزيد عن بعض المداعبات الخفيفة التي لن تضر والتي لن تكون لها أية نتائج ضارة بها أو بسمعتها.

طال انتظارها للزبون دون أن يأتي، وفكرت في الخروج والعودة إلى الحديقة، حيث ظل هناك «بطلنا» تحت المطر، وحيث تبددت روحها نزيفاً حاراً ألهب خطاها وهي تبتعد، ولكنها تراجعت وظلت تستلقي محاولة ألا تفكر في شيء عدا مغامرتها الجديدة ومشروعها الجديد، أن تجمع ألف دولار على الأقل وأن تسافر إلى تركيا لجلب حقيبة من العلكة، لتبيعها بما يساوي الثلاثة آلاف دولار وهكذا حتى تجمع ربع مليون دينار، لشراء بيت وسيارة وكل ذلك كي تستطيع الحياة مستقلة، بعيداً عن الاسرة وتتمكن من الزواج كما تريد ووفقا لشروطها.

كانت هذه المشاريع قد نبتت في رأسها فجأة ودونما سابق انذار، وتحولت إلى برنامج عمل ومشروع حياة بالنسبة لها، فلقد تحول مختار إلى كائن غريب لا يمكن الاعتماد عليه، بل أن الوجود بقربه صار يخيفها، وصارت مطاردته اليومية لها بين التماثيل بالمتحف عملاً جنونياً، أدركت أن عليها أن تقلع عنه تماماً، وأن تغادر المتحف والحديقة وأن تختفي من حياته وأن تخفيه من حياتها، وأن تغادر الجامعة من أجل حراك اجتماعي سريع وحاسم، كانت تدرك أن ذلك مغامرة خطرة قد لا تخرج منها إلاّ وقد خسرت كل شيء حتى الأوهام، ولكنها ورغم كل ذلك، أخذت خطوتها الجادة، وشجعها توقف التاكسي دون أن تشير له بالوقوف. كان التاكسي بالنسبة لها ملاك التحول من حياة الى أخرى، هكذا وعلى العكس من كل نظريات علم الاجتماع التي ظلت تحاول حفظها عن ظهر قلب، تم حراكها فجأة ودونما سابق انذار، هجرت الجامعة والعاشق والعائلة.

كان التحول قد تمّ في لحظة واحدة، لم يستغرق كما يتطلب البناء والسرد الروائيين وقتاً طويلاً ولا مراحل ولا ظروف مختلفة أو استثنائية، بل تمّ هكذا بكلمة واحدة «الحراك» فتحركت مبتعدة عنه، تاركة إيّاه متسمّراً تحت المطر.

يوم وصولها إلى المزرعة لم يكن يوم خميس، ولم يكن الأفندي عمر مستعداً حتى لرؤية امرأة، كان قد انتهى للتو وعند وصولها إلى المزرعة من أداء صلاة المغرب كان بجلبابه الطويل الابيض، أشبه بزاهد نبذ الحياة والجسد وتفرغ للعبادة والزراعة، بل لم يعرف بوجودها في غرفة نومه، إلاّ بعد أن دخل بعد صلاة المغرب إلى الغرفة ووجدها هناك، أطلق عليها السلام كما لو كانت شخصاً مألوفاً بالنسبة له ومتوقعاً وجوده هنا في هذا المكان بالذات.

انتظرت أن يقترب منها أن يلمس يدها، أن يرحّب بها كما يرحّب رجل بأنثى في غرفة نوم، ولكنها فوجئت به، وهو يعاملها كما لو كانت ابنته الصغيرة، بعد أن قال لها بحنو: ما بكِ؟ ثم أردف وهو يضع يده على كتفها لاتخافي.

لم تكن خائفة على الاطلاق، فقط كانت في عجلة من أمرها كما يقال لذا نزعت معطفها الأسود، دون أن تنزع شالها الأحمر، والتفتت إليه مغمضة عينيها، فأنتفض مبتعداً عنها ثم قال وبنفس هدوء صوته: ماذا تريدين؟ ودون أن ينتظر اجابتها أخرج من جيب جلبابه الأبيض مائة دولار وخبأها في صدرها وهمس: يوم الخميس.

حملت معطفها الأسود وغادرت الغرفة والمزرعة دون أن يكلمها أحد، ووجدت التاكسي في انتظارها، لم يسألها إلى أين بل انطلق بها حتى الحديقة، وقال لها وهي تغادر التاكسي: يوم الخميس، ومضى.

كان الأفندي عمر وبعد أن غادرته «بطلتنا» قد تمنى لو أنها بقيت ولو أنه أقام ليلة استثنائية على شرفها، فلقد كانت تبدو عذراء، وصغيراً كل شيء فيها، وأحسّ بوهج شبابها، يملأ غرفة نومه رغم رحيلها، وأحسّ برائحة جسدها العفية الحارة تدفيء سرير غرفته، وأستلقى هناك على سريره متحسساً أثارها الدافئة، محاولاً تذكر تفاصيلها الصغيرة التي أخذت تتدفق أمام عينيه نابضة ساحرة.

كان الولع بالبنات الصغيرات قد امتلك كيانه كما يقال وكان قصر القامة وصغر النهدين ما يحرك روحه ويجعل دماء الشهوة تتدفق في جسده السبعيني، ولقد فعلت به كل ذلك «فاطمة» حتى أنه فكر في البحث عنها وطلبها للزواج. كانت الأمور قد أخذت تسير معه كما تسير عادة الأمور مع رجل غني وشابة فقيرة في فيلم مليودرامي عربي، كان على استعداد لو أنها بقيت وسمحت له بشم رائحة الحياة وهي تتدفق دماء حارة، عبر جسدها الصغير أن يلبي لها كل ما تريد،ولكنها رحلت، لأنه لم يطلب منها البقاء.

كل ذلك وكما في الافلام العربية دون أن يعرف الأب أن التي يشتهيها، كانت على علاقة بابنه الوحيد، الذي ظل متسمّراً تحت المطر، منتظراً عودتها، ودون أن تعرف البطلة في البداية أن الذي ذهبت إليه ودخلت غرفة نومه عارضة جسدها الصغير كان والد حبيبها المهجور.

البطلة

على هذا النحو، تأخذ قصتنا شكلها العربي، رغم مفارقتها لقصة الراحل المصري «احسان عبدالقدوس، الوسادة الخالية» دون أن تفارق عبدالقدوس تماماً فهي وعلى ما يبدو تقترب من قصته الأخرى «بئر الحرمان» حيث تتعهر بطلتنا كما كانت تفعل بطلته، رغم أن بطلتنا تبدو واعية بما تفعل ولا تتسرنم ليلاً كما كانت بطلة «بئر الحرمان» بل تنطلق في عزّ النهار. البطلة كما في قصة الكاتب المصري الراحل احسان عبد القدوس «بئر الحرمان»، كانت فاطمة ابنة عائلة محافظة، وعلى عكس «بئر الحرمان» كان أبوها موظفاً بسيطاً يعمل بمصلحة الأوقاف، كانت تنتمي للعائلات البسيطة التي انتعشت بقرارات الثورة الاشتراكية وعرفت واستمتعت بالثلاجة والتلفزيون وأجهزة التسجيل، وسكنت شققاً بناها البولنديون والبلغار والمصريون، وحصل أبناؤها على فرص التعليم والتوظيف والقروض والتسهيلات، وعرفت وكما أغنياء البلد القدامى الموز والعسل والأشرطة المسجلة والموضة، وسافر أفرادها الى اوربا وامريكا للسياحة والدراسة، لقد عاشوا الحياة الجديدة الحلوة فترة السبعينيات، وازدادوا ايماناً على ايمانهم بالثورة وبالناصرية وبالقومية العربية، وتولع الجيل الجديد الذي تنتمي له بطلتنا بفريد الاطرش والمارد العربي، وبعبد الحليم حافظ بالتأكيد، كانوا يعيشون كأبناء برجوازية الناصرية ويهتفون كفقرائها. كانوا وبالمختصر المفيد وبعيدا عن الانشاء الروائي المصطنع، يعيشون حالة «بئر الحرمان».

«بئر الحرمان» رواية مصرية، لم تقرأها بطلتنا ولم تشاهد سعاد حسني وهي تقوم ببطولتها على شاشة السينما فبطلتنا ورغم كل التطور والنهضة لم تذهب في حياتها إلى السينما ولم تشاهد على شاشة التلفزيون إلا بعض الأفلام المصرية المحتشمة، التي لا يمكن أن يكون بئر الحرمان من بينها، ولكنها «أي بطلتنا» عاشتها، يقودها عطشها دون أن تعرفه الى بئر حرمانها، ويقيدها نفس العطش لسارية الأخلاق والقيم والمكانة الاجتماعية.

فاطمة التي تعيش مرحلة البياض في كل شيء والتي يقرب شفتيه أثناء الشروع في كتابة هذا النص من أذنها كي يهمس فيها، حيث مرّت عشر سنوات على افتراقهما، وحيث كان عليها عبر تلك السنوات العشر، أن تعيش ليلة من ليالي «بئر حرمان» احسان عبدالقدوس، لعشر سنوات فارغات طوال، تلوك علكتها، وتنتقل من مزرعة إلى أخرى ومن استراحة إلى أخرى، يموت أبوها منتحراً إثر ما جرّت عليه من فضائح، وتلحق به أمها بعد شهر واحد، ويركن أخوها في شقتهم وحيداً معزولاً، متخلياً عن العمل الثوري ومحاربة التفسخ البرجوازي والاستغلال من أجل الاشتراكية ومجتمع المساواة والعدل والأخلاق. مكتفياً بدور الموظف البسيط والفاشل على الصعيد الاجتماعي في لعبة الاندماج والتفاعل.

في بئر الحرمان، تعيش البطلة حالتين متناقضتين تماماً، حيث تعيش في النهار حياة ابنة العائلة المحافظة البرجوازية، ودون أن تعي تنهض من نومها في الليل وتتسرنم متسللة من شباكها إلى الشارع بملابس بنات الهوى، وتخوض مغامراتها الجنسية دون أن تدري، لتكتشف في الصباح آثار الليل والتفسخ على جسدها، وكل ذلك يتم ليلاً وروحها نائمة، مما يعفيها من كل الذنوب والاحساس بالتعهر.

بطلتنا تعيش بئر حرمان في بلد آخر وفي تاريخ آخر، أو بالأحرى في زمن آخر لذا تأخذ حالتها شكلاً له خصوصيته، فيه وإن عاشت حالتين متناقضتين إلا أنها وعلى عكس بطلة عبد القدوس، تعيشهما وهي صاحية، ولا تصاب بحالة من التعهر وهي غائبة عن الوعي، فهي لا تفاجأ بآثار الليالي الحمراء على جسدها دون أن تعرف السبب، ولكنها كبطلة عبدالقدوس، تسير في الشارع محتشمة، تنظر إلى الأرض، ولا تلتفت ككل البنات المحترمات إلى معاكسات الشباب، بل تبدو جادة ومحافظة حتى ترى زبوناً، كانت قادرة على اكتشاف الزبون، وسط مائة رجل وكانت قادرة على معرفة قدراته كاملة وفي لمح البصر، وما أن تكتشفه حتى تبدأ في لوكها السريع العصبي حتى ينتبه لتبدأ في اللوك المنشرح المتفتح، «اللوك المنشرح يعني لوكاً متبأطئاً يتسع فيه الفم كثيرا وينغلق ببطء».

كانت تندمج للحظات قصيرة يستغرقها وقوفها مع الزبون في اللوك المنشرح، ثم يعود لوكها أدراجه إلى اللوك العصبي، وينطفيء كل اللوك دفعة واحدة، بمجرد الاتفاق، لتواصل سيرها تنظر إلى الأرض.الغريب في أمر بطلتنا إنها كانت لا تشعر بأي استمتاع مع الرجال إلاّ لحظات اللوك المنشرح تلك.

كانت تلك اللحظات غلمتها الممتعة الناعمة، أما ما تصاب به من توتر من عنف، من لهث وصراخ وعواء، أثناء المعاشرة فلم يكن فيه أي متع بالنسبة لها بل كان أعمال قتل وتمثيل بجثة جسدها تقوم بها روحها الغاضبة، لينتهي كل شيء ببكائها المرير وضم زبونها الى جثتها بعنف محاولة اغراقه معها وسط دموعها الحارقة.

على هذا النحو تطورت علاقتها بالعلكة، لتصبح العلكة الرفيق الوحيد القادر على ايقاظ أنوثتها، منذ أن غادرت بطلنا تاركة إيّاه متسمّراً تحت المطر لعشر سنوات طوال.

لوك العلكة لم يكن جديداً عليها ولم يقترن منذ بدايته بكل هذا، كان تسليةً عاديةً تقوم بها قبل دخولها قسم علم الاجتماع، وانشغالها بالحراك الاجتماعي. وقبل تعرفها على مختار، وجلوسها معه على الكرسي الأحمر مع صديقتيها وصديقيه في الحديقة، واستمر الأمر هكذا عادياً حتى تعرّفت عليه وحتى جرّها إلى المتحف ورأت التمثال، والذي ذهلت بما يكمن فيه من أنوثة وتهور واستسلام.

كانت كل مرّة توشك أن تسمح له بتقبيلها بين التماثيل الرومانية الضخمة، يحول بينه وبينها التمثال، وكانت كلما حاولت أن تعانقه تحت أقواس الداخلية ترى التمثال يعترض طريقها إلى أحضانه، كان التمثال لعنة المتحف والترك والقرن التاسع عشر التي ظلت تطاردها بعيداً عنه، كانت وبذكائها الأنثوي الثاقب قد أدركت أن مختار ظل يفتش عن التمثال فيها، كان بحاجة لصنم، وكانت بحاجة للحراك. لذا تحركت وتركته هناك متسمّراً تحت المطر.

لوكُ العلكة والذي يتشابه بالنسبة لها مع حياتها قبل مختار وبعده، بدأ يأخذ مذاق ومعنى الممارسة الحقيقية للحب والجنس وللديمومة والتجدد، حالما غادرت الحديقة تاركة إيّاه خلفها، متسمّراً كالتمثال.

العلكة وبعيداً عن التفلسف أخذت دور الأنيس الذي تركن إليه وتمارس معه لذة وجودها الخالية من المعاني والأغراض.

كل ذلك لم يصل بالنسبة لها إلى هذا النوع من الوعي المتأثر كما يبدو بمقولات أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا والمتخصص في سارتر فرغم تماس الفلسفة مع مناهج تخصصها إلاّ أنها لم تلق في يوم من الأيام بالاً لسارتر ولا للفلسفة، بل ظل متعة حقيقية تحسّها فقط لا غير.

كان فضّ أغلفة العلكة وتحسسها بالشفتين ثم تدفق اللعاب لزجاً وطرياً وتسربه إلى الشفتين ليغمر العلكة ثم سحب العلكة باللسان إلى داخل الفم ثم سيحان الحلاوة داخل الفم، كل ذلك كان يشعرها بذلك الامتلاء باللذة ثم ارتعاشة تعرفها جيداً دون أن تعرف تخص مَنْ مِنَ الرجال.

فاطمة بنت الاثنين وعشرين صيفاً كما تحب أن تصف حياتها كانت تعيش وبعيداً عن نظريات أستاذ الفلسفة، مرحلة العلكة بكل تفاصيلها، تلك المرحلة التي طبعت الحياة من حولها بذلك اللوك المتكرر، العصبي والناعم، السريع والبطيء، الذي يعلو أحياناً حتى ذرى المضغ ويتدنى أحياناً حتى قيعان السحل الذي يعيد تمثيل بئر الحرمان.

البطل

لم يكن مختار الذي ظل متسمّراً تحت المطر لعشر سنوات طوال، منتظرا التفاتتها وركضها باتجاهه عائدة، قد دخل هذه الحالة فجأة هكذا، لقد ظلت حياته لوكاً تراوح بين اللوك العصبي والمنشرح، بين اعتماره لقبعة أبيه الكبيرة والثقيلة، بتاجها المذهب وهو طفل وخروجه على السائق الذي يسارع مرتعباً لفتح باب السيارة الخلفي الأيمن ليؤدي التحية بجهد كبير وهو يهتف «صباح الخير سيدي»، وبين سوط أبيه السوداني المتدلي على الحائط تحت القبعة الكبيرة والثقيلة والذي يشرعه أبوه بين الفينة والأخرى في وجهه حتى بعد أن جاوز الطفولة وحتى بعد أن أقيل أبوه من خدمة البوليس وأضحى بوليسا مقالاً من العمل.

لقد ظلت حياته تلاك بين هذين المشهدين ويبدو أن حالة تسمّره تحت الشجرة ومتابعته لها وهي تبتعد بمعطفها الاسود وشالها الأحمر تحت المطر لعشر سنوات طوال، ليست إلا تتويجاً لرحلة طويلة بالنسبة له من اللوك المكرور. أو أنها وبدقة أكبر ليست إلا لحظات انتظار للسوط المرفوع عالياً ونزوله بعنف على قفاه المبلل بالعرق أو تزول القبعة بكل مجدها وعزتها وتكليلها لرأسه، لقد ظلت عيناه تلوكان مشهد ابتعادها لحظة إثر لحظة، وظل قلبه يلوك أمل توقفها والتفاتتها ثم ركضها عائدة باتجاهه في نفس اللحظات المكرورة.

كان وكما أشرنا من قبل قد طال شعر رأسه وذقنه وبلت ملابسه وأحاط نفسه بأكداس من العلب الفارغة.

العلب الفارغة صارت موضوع الصحافة في البداية ثم أخذت قيمتها العلمية على يد أستاذ الاقتصاد العائد للتو من امريكا والذي درس «كينز» ولم يعجبه وتولع وأبطن ولعه بماو تسي تونغ خوفاً من المخابرات الامريكية في امريكا ومن الأمن الليبي في امريكا وليبيا.

الصحافة نشرت صوراً عديدة لبطلنا وهو محاط بالعلب الفارغة وذلك ضمن حملاتها المتكررة ضد الاستهلاك وقيم السوق الراسمالي، أما أستاذ الاقتصاد والذي ورغم ادراكه لجهل طلبته باللغة الانجليزية ظل يستهلك المفردات الانجليزية بإفراط شديد فلقد التقط الموضوع من الصحافة وأعطاه الشكل الأكاديمي كما يحب أن يؤكد دائماً وذلك بدراسة منهجية مفصّلة عن تطور الاستهلاك في ليبيا عبر أنواع، والبلدان المنتجة لتلك العلب، وأنواع السلع التي احتوتها تلك العلب.

كانت العلب تؤرخ لتطور وتغير الاستهلاك في ليبيا فمن العلب الايطالية والفرنسية والالمانية والامريكية وحتى السويسرية والدنماركية وصولاً الى العلب التونسية والمصرية والتركية وبالتأكيد الصينية والتايوانية والبلغارية واليوغوسلافية وفي الوسط كانت العلب التايوانية ذات الاغلفة الوطنية الباهتة، ما اكتشفه أستاذ الاقتصاد وأخفاه من دراسته الرائدة كان هيمنة السياسة على الاستهلاك وتوجهاته في ليبيا.

بطلنا لم يكن محور أبحاث واهتمامات أستاذ الاقتصاد العائد من امريكا، لقد استحوذت العلب الفارغة على اهتمامه ملقية ببطلنا إلى هامش الاهتمام.

بطلنا وبعد أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا صار محور اهتمام مخرج المسرح العائد من المجر للتو، فلقد سُحِر الفنان بمشهد بطلنا وهو ينحني ليلتقط احدى العلب فيبدو كإله وثني يخرج من الاوديسا ملتقطاً سفينة يوليسس من براثن الطوفان.

ظلت مخيلة المخرج تلوك هذا المشهد لعشر سنوات طوال دون أن يتمكن من تنفيذه لنقص الامكانيات وصار هو جزء من المشهد، فلقد ظل يأتي كل يوم ويجلس مقابلاً لبطلنا متأملاً لوجوده العلكة.

لم ينتبه المخرج لزيارات أستاذ الاقتصاد وطلبته وتفحصهم الدقيق للعلب كما لم ينتبه من قبل لا هو ولا أستاذ الاقتصاد لزيارات أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا وبالتأكيد لم ينتبه بطلنا لهم جميعا، كانت تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر وكان معلّقاً بإبتعادها ومتسمّرا تحت الشجرة وسط الحديقة لعشر سنوات طوال، كانت الحياة تسير من حوله كما ظلت دائماً تسير في الحديقة، عشاق يأتون وعشاق ينصرفون، وبوليس يراقب تفاصيل ذلك شعراء يأتون وشعراء يمضون بعضهم يكتب وبعضهم يكلم الريح ويمضي، وبوليس يراقب كل ذلك، عاهرات وقوادون، تجار مخدرات وسياسيون، صائدو عاهرات ونشالون وغرباء يحاولون النوم دون ان يستطيعوا، أصناف شتّى، تلوكها الحديقة، ويلوك البوليس تفاصيل كل ذلك بلا ملل، يأتون ويمضون ومتسمّراً يمكث في الحديقة منتظراً التفاتتها ثم ركضها عائدة اليه لعشر سنوات طوال.

بعد مضي أربع وعشرين ساعة مما تعدّون ونفس اللحظة مما يعد بطلنا وصل أكثر من مائة تقرير أمنى الى الجهات الأعلى عن وجوده والوضع الذي يأخذه تسمّره مدعماً بالصور.

بعد مضي ست وثلاثين ساعة مما تعدّون ونفس اللحظة مما يعدّ بطلنا تم تشكيل دورية خاصة من جهات وأجهزة مختلفة لمراقبته يترأسها أحد زملائه في الجامعة، وظلت الدورية تتسمّر هناك عاماً كاملاً من تسمّره ثم تمّ اخلاء شقة كانت مقراً لشركة أمنية تتاجر في الملابس وصارت مقراً للدورية وأحتفظت الدورية بلافتة الشركة على بابها لعامين، كانت الشقة تطل على الحديقة وبالتحديد على رأس بطلنا ولو تحرك لسبّب مشكلة للدورية وربما أضطرها لإخلاء شقة اخرى.

على عكس الأجهزة الأمنية كان تقييم وفهم الثوريين لتسمّره فلقد اتفقوا على رمزية تسمّره طبقياً وعقلياً، فهو ابن ضابط بوليس ملكي كبير، وغني، لقد وجدوا فيه تمثالاً حقيقياً يرمز لرجعية وجمود العهد الملكي المنهار وعلى عكس كل الأنصاب التي أقاموها لم يكلفهم مليماً واحدا ولن يكون بمثل هذه الدقة والعبقرية لو حاول أكبر نحّاتي العالم اقامته لايصال تلك الدلالات المذهلة الخطيرة والهامة والضرورية في مرحلة التحول تلك.

نتيجة لهذا التشخيص الثوري تُرك بطلنا متسمّرا في الحديقة لعشر سنوات طوال وتركت العلب الفارغة تتكدس حوله كمستندات حيّة وأدلة دامغة على جمود وقذارة قيم الاستهلاك ونتيجة لهذا التشخيص تحوّل بطلنا إلى رمز حي يفرض حضوره في الصحافة والدراسات الأكاديمية والبرامج التلفزيونية كان بالنسبة للثوريين قد أصبح متحف العصور الغابرة وقيمها الرأسمالية.

وعلى عكسهم جميعاً كان بطلنا يركض مطارداً سراب ليل دامس طويل يأخذ شكل بقعة ضوء أزرق شفاف يزيدها بهاءً وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر. كان يحاول التمسك بتلابيب الغروب الذي شرعت في ابتعادها عنده ويحاول البقاء هناك قبل حلول ذلك الليل البهيم.

سراب الليل

سراب الليل الذي ظل يطارده بطلنا لعشر سنوات متسمّراً تحت الشجرة وسط الحديقة، كان شفيفاً أزرق، يظلل الظهيرة الطرابلسية الفاقعة، وينشر ضوءه عبر عتمات ليلها فيحيل زمن طرابلس كله أمسية ماطرة، كانت وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر تنشر ظلال معطفها عبر ظهيرة طرابلس وتنشر وهج شالها الأحمر عبر لياليها المعتمة، كانت وهي تبتعد تمنح طرابلس ألوانها ومناخها الانطباعي الشفيف.

أثناء كتابتنا لذلك المشهد كانت بطلتنا تجلس عاريةً على أريكة قديمة في بيت رسام يحاول أن يرسمها كما يفعل الرسامون الأوربيون مع موديلاتهم، كانت الأنثى العارية الأولى في حياته، وكان مرتبكاً ويتصبب عرقاً، وكانت تريد أن تنهي مهمتها بسرعة، لذا نهضت وتقدمت نحوه، طوقت عنقه بذراعيها وقبّلته في فمه ثم شرعت تفك أزراره زراً زراً، ثم تركته ملقياً على الأرض بعد أن سحبت من جيب بنطاله الملقى بعيداً مائة دينار حسب الاتفاق ومضت.

مرت عشر سنوات طوال دون أن يتمكن الرسام من رسم أي شيء عداها وهي تقترب نحوه بشفتين متشوفتين لقبلة لا تجيء، ونهدين يوشكان على الانفجار في وجهه كلغم.

رسم عبر العشر سنوات الطوال ما يزيد على المائة لوحة وكانت كلها تتأة للحظة واحدة.

ظلت ستائر مرسمه مسدلة، وظل الضوء الخافت متسمّراً عند لحظة تقدمها نحوه، ظل يطارد سراب تقدمها نحوه متأتأ بلوحة واحدة لعشر سنوات طوال.

التي تركت خلفها الرسام ملقى على الارض صريع لذة تتدلى قرب فمه دون أن يطالها أعني بطلتنا فاطمة مضت نحو مقهى بحثاً عن زبون آخر قبل حلول الليل وقبل انتهاء اتفاقيات السهر، كانت تسابق الغروب إلى المقهى الذي بدا لها وهي تقترب منه أعلى ما يمكن الصعود إليه في طرابلس، حيث الزبائن وحيث تتناثر البنات بأشكال متنوعة وبأحجام متنوعة وبالتأكيد بأسعار متنوعة، يلكن العلكة بعصبية أحياناً وبإنشراح أحياناً أخرى يصطدن بتوتر ويفاوضن بهدوء واصرار محترفات.

فكرت في التراجع والهروب حين دخلت المقهى ولم تجد عداه من الزبائن، كان يجلس متوتراً قلقاً وما أن رأها حتى نهض ودعاها وانبسطت أساريره حين توجهت إلى طاولته، كان يسميها «ريم» وأحياناً مريم وأخرى زينب دون أن يسألها عن اسمها ودون أن يعطيها الفرصة لتسأله عن اسمه كان في المرتين السابقتين لخروجها معه يسألها مباشرة كم تريدين وكانت تجيب مائة دينار فيضحك ويقول مائتين، ليبدأ بعد ذلك مباشرة في ترديد قصائد شعبية من الغزل الفاضح، حتى يصل بها إلى مزرعته في وادي الربيع، ليبدأ عملها المرهق، كان عليها في كل مرّة أن تجبر جسدها الصغير على امتصاص اندفاع ثور هائج واطفاء حمم بركان هائل، كان وهو يهاجمها في البداية يدعوها ريم وكان وهو يدهس نهديها الصغيرين برأسه الضخمة

يدعوها مريم وكان وهو يرتعش فوقها يخور زينب، وأثناء كل ذلك كانت تصرخ حتى تغيب عن الوعي، لتجده بعد أن تستيقظ يبكي على صدرها مستجدياً منها السماح والمغفرة.

عرفت من البنات أنه مقاول كبير، متخصص في بناء أسوار للمدارس والمستشفيات ومعسكرات الجيش وبالتأكيد السجون، وأنه يملك مزارع واستراحات كثيرة بحيث لا يسهر ليلتين متتاليتين في مكان واحد، كان ينوع الأمكنة والبنات، وكانت بطلتنا اخر تنويعاته النسائية، شدّهُ حتى الهوس بها قِصر قامتها وصغر نهديها واكتشفت وبعد تجارب كثيرة أن كبار السن من الأغنياء هذه الأيام يفضلون القصيرات، ويتلذذون كثيراً بالآم أجسادهن الصغيرة عند المعاشرة، كان الصراخ وارتعاب النهود الصغيرة وأثار العضّ بالأعناق القصيرة ذروة شهواتهم الجامحة.

كان سراب الليل الذي ظل ينشره ابتعادها عنه يغلّف كل شيء حوله، وكان يعرّيها من كل شيء ويعرّي كل شيء حولها.

سرابُ الليل، الأزرق الواهن الشفيف هيمن على المسرح بحثاً عن مناخ شعري ناعم، زمن الخشون والتسطيح كما يقول مخرج المسرح العائد للتو من فرنسا، كانت الشعرية البصرية كما يسمي المشاهد الليلية المضاءة بالأزرق التي سادت عمله الوحيد، والذي نفّذه على مدى عام كامل والذي عرض لمرّة واحدة وحضره عدد قليل من أصدقائه المنقذ الوحيد للذوق من الضحالة والتسطيح والمباشرة كما ظل رغم كل الفشل يقول، كان قد شاهد المخرج العائد من المجر يجلس وسط الحديقة، يتأمل بطلنا وهو يلتقط العلب الفارغة ثم يلقي بها وشاهد أستاذ الاقتصاد العائد للتو من امريكا وهو يلتقط العلب الفارغة التي يلقي بها بطلنا ويتفحصها ثم يدون في مفكرته ملاحظات عنها، لم يكن يهمه لا بطلنا ولا أستاذ الاقتصاد ولا أستاذ الفلسفة الذي شاهده وتلاميذه مرّة واحدة، كان زميله العائد من المجر موضوعه الأثير الذي ظل يلوكه في مشاهد زرقاء متعددة ليس فيها من شيء عدا الزرقة والتحديق في الفراغ، المخرج العائد من فرنسا لم ينتبه لوجود الدورية التي رصدت وجوده والتقطت له صوراً عديدة كان أهمها واحدة جمعت العائدين جميعا فبدت أشبه باحدى لوحات سلفادور دالي حيث يظهر هو وهو يتأمل المخرج العائد من المجر الذي يتأمل بطلنا ثم أستاذ الاقتصاد العائد من امريكا ثم أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا، ثم صحفي وبعده عنصر أمني في عمق الصورة، المسؤلون عن الدورية اعتبروا هذه الصورة أفضل وأكمل الوثائق دون أن يعرفوا أن هناك صورة أخرى تخترق شباكهم لتضيفهم لصورتهم.

عبر سراب الليل ظل يرحل خلفها متسمّراً تحت الشجرة وسط الحديقة، لاهثاً في انتظاره خلف لحظة توقفها ثم ركضها بإتجاهه كما ظلت تفعل دائماً تحت أقواس الداخلية، كان يسابق الليل البهيم الذي كان يقترب كما ظل يراه لاهثاً عشر سنوات طوال، كان يريدها أن تتوقف وكانت تبتعد هاربة من التمثال ومن القرن التاسع عشر، لم ير ولم يشعر أحدٌ بلهاثه المضني، كان وحيداً وعطشاً وبائساً لعشر سنوات طوال، لا يرى ولا يسمع عداه وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر، كان ومع مرور الأيام والشهور والسنوات قد تحوّل الى هامش منسي، إلى أفكار متناقضة قد تعني كل

شيء عداه، كانوا ينطلقون منه كشيء ليسرحوا بعيداً عنه، فكان أستاذ الفلسفة قد انطلق من وجوده متسمّرا بالحديقة إلى تجريدات الوجود الانساني واللوك الأبدي، وكان أستاذ الاقتصاد قد انطلق من وجوده أيضاً إلى العلب وتطور الاستهلاك في ليبيا، وكان مخرج المسرح العائد من المجر قد انطلق هو الآخر من وجوده الى اوديسا هوميروس وكان مخرج المسرح العائد من فرنسا قد انطلق من وجوده إلى وجود زميله العائد من المجر والشعرية البصرية، وكان الصحفيون والعشاق واللصوص وباعة المخدرات والعاهرات المتلهيات بلوك العلكة قد توقفوا جميعا عن رؤيته.فاطمة بطلتنا ابنة الاثنين وعشرين صيفاً، ظلت تطارد أيضاً سراب ليلها محاولة نسيان تسمّره خلفها تحت الشجرة لعشر سنوات طوال.

العلكة

اللوك فعل أنثوي حقيقي، من الصعود والهبوط والامتصاص، من التوتر والانشراح، ربما يكون موضوع رسالة أكاديمية ممتازاً، وموضوع صحافة وتلفزيون وحتى سياسة مثيراً، وربما تكون ليبيا البلد الأول في العالم الذي انشغل بالعلكة لعشر سنوات طوال، فهي ورغم قضايا الحداثة والتحديث الكبرى، رغم التسلح وفلسطين والوحدة العربية والعدالة الاجتماعية، وتعديل قوانين الأمم المتحدة، رغم الاوبيك وأسعار النفط رغم مؤامرات امريكا وبريطانيا ضدها، رغم كل ذلك قفزت إلى ما بعد الحداثة مبكراً بالنسبة لشقيقاتها العربيات المتلهيات بلوك قضايا الحداثة الشديدة الضخامة والثقل.

الانشغال الليبي بقضايا ما بعد الحداثة لم يكن انشغالاً رسمياً، بل كان انشغالاً شعبياً استطاع الشارع فرضه على الأجهزة الرسمية للدولة، فكانت قضايا الشامبو والموز وأشرطة الموسيقى الغربية، كانت قضايا الجينز والخمر وغيرها من القضايا ذات الطابع ما بعد الحداثي تلاك في ليبيا نهاراً من قبل الشارع ومن أجهزة الاعلام وأجهزة الثورة وبقية أجهزة الدولة الاخرى، كانت العلكة قد فرضت فلسفتها على كل مناشط ومظاهر الحياة.

بطلتنا «فاطمة» شكّلت العلكة عنصر وجودها الأهم، على مدى عشر سنوات طوال، فلاكت أنواعاً شتّى من العلكة وتعرفت إلى أشخاص كثيرين بسبب العلكة، ومنحت جسدها الصغير لرجال كثيرين من أجل العلكة، ودخلت أمكنة ما كانت لتدخلها لولا العلكة، وتابعت برامج في الاذاعة والتلفزيون ما كانت لتتابعها لو لم تكن عن العلكة، بل وقرأت مقالات لأستاذ الفلسفة العائد من فرنسا والتي تمّ ضمّها في كتاب تمّ توزيعه بأسعار رمزية، وظل الراديو والتلفزيون يلوكان فصوله لسنوات ما كانت لتقرأه لولا عنوانه المرتبط بالعلكة «الوجود العلكة».

كانت العلكة مشروع وجودها الجديد وهي تبتعد بمعطفها الأسود وشالها الأحمر تحت المطر، عنه «بطلنا» وعن التمثال، عن الحديقة والسرايا الحمراء، عن العائلة والقبيلة وتشرع في اللوك. كانت وعبر العلكة تستعيد أنوثتها الضائعة هذا ما ظلت تحسّه وهي تلوك.

كان لوك العلكة اللذة الخالصة التي ظلت تبهج حياتها لعشر سنوات طوال، كان جسدها ينشرح ويتوتر ويرتعش، كان يتفتح ويمتص وكانت روحها تطير عالياً عبر أزرق شفيف وسط ليل بهيم، كانت العلكة سراب ليلها الذي ظلت روحها تحلق منتشية عبره رغم الآم جسدها عند معاشرة الرجال حتى تجار ومهربي العلكة.

كانت قد تخلت عن مشروعها المتعلق بالتجارة في العلكة والسفر الى تركيا، وظلت رغم ذلك تلوك هذا المشروع وتخطط له، دون أن تشرع في تنفيذه، كانت تعاشر سماسرة العلكة وتهتم بتفاصيل تجارتهم ولا تتوقف عن توجيه الأسئلة المتعلقة بالعلكة وتجارتها لهم حتى وهي تمارس الجنس مع الواحد منهم.

حتى ذلك لم يكن ممتعاً بالنسبة لها، لقد ظل اللوك متعتها الأجمل.

اللوك انتشر واسعاً، صار ظاهرة احتماعية، ولم يقتصر على النساء والشباب فقط، بل انتشر بين الرجال، ولم يعد ملفتاً للنظر جلوس رجل عجوز أمام بيته والاستمتاع بلوك العلكة ولم تعد فرقعة امرأة عجوز للعلكة أمراً مثيراً للإستغراب!!.

العلكة ولوكها صارا سلوكاً عاماً رغم مجهودات الاعلام والأوقاف وجمعيات المرأة والشباب للقضاء على هذا السلوك، حتى تحولت تلك المجهودات نفسها الى علكة تلاك ليلا نهاراً، دون ان يستمتع القائمون بها بفعل اللوك الحقيقي، لوك العلكة الحقيقية!!

كانت العلكة عبر تلك السنوات قد شيدت بيوتاً لا أساس لها وهدمت بيوت عزّ وكرم فعدد من أصدقاء بطلتنا الذين تعرفت عليهم وصادقتهم بسبب العلكة كانوا فقراء معدمين، صنعت العلكة منهم رؤوس أموال هامة في البلد، وتعرف كثيرين ممن أفلسوا بسبب العلكة.

كانت العلكة وعلى مدى عشر سنوات طوال قد تحولت إلى سراب ليل أزرق شفيف يطارده الجميع، وكانت قد تحولت الى مشروع فلسفي رائد وإلى قيم جمالية في المسرح والموسيقى والفنون التشكيلية والشعبية، وإلى رسائل جامعية في الاقتصاد والعلوم السياسية، وإلى عمل سري يراقبه الأمن بمشقّة وإلى يمين ويسار ويسار وسط ووسط يمين ووسط يسار ولا منتمي.

العلكة صارت وبالمختصر المفيد علكة الجميع ولكن اللوك الحقيقي ومتعه كان فعل القليلين الذين كان من بينهم بطلتنا بالتأكيد.

ألوكها وتلوكني

«رحمة» اسم يحبه الليبيون كثيراً وغالباً ما يطلق على البنات اللاتي تعاني أمهاتهن كثرة الأولاد ثم ترزق بابنة تكون رحمة لها لتعينها حين تشيخ على إعالة وخدمة الأب والأبناء الذكور، ورحمة التي لا مفر لنا الآن من دخول بيتها وعالمها ولو بشكل مختصر في سردنا هذا هي أم بطلنا المتسمّر تحت الشجرة وسط الحديقة.

تنحدر رحمة من سلالة تركية وليبية، يقال إن جدّها ضابط عصمانللي كما كان الليبيون يسمون الترك قبل دخول الطليان لبلادهم، قتل في العصر التركي ولم يترك إلاّ ابنة صغيرة، هجرتها أمها التي جنّت بعد قتل زوجها وظلت تتجول ليلاً في حديقة وتختفي في النهار، حتى عثر عليها ميتة في العام الرابع للإحتلال «ورد ذكرها في هذا السرد» ورباها أي الطفلة رجل ليبي وزوّجها بعد أن كبرت لابنه وأنجبت منه «رحمة».

رحمة ورغم الاختلاط والتهجين الذي خرجت منه حافظت على شقرة شعر وحمرة بشرة تركيتين، تزوجها الأفندي عمر وهو بوليس نفر لشقرتها وحمرتها وتزوجته لبدلته وطوله رغم قرفها من نحالته وسمرته ثم أنستها الأيام بدلته ورتبه التي حصل عليها في العهد الملكي، ليظل قرفها من سمرته ونحالته الدائم الوحيد، ربما كان هذا من أهم أسباب عدم انجابها منه إلاّ ابنا واحداً هو بطلنا مختار.

تقبع الآن رحمة وحيدة في بيت زوجها الأفندي عمر بشارع بن عاشور فزوجها وكما نعلم ينعزل في مزرعته وابنها يتسمّر في الحديقة تحت المطر، هي الآن في الخمسين من عمرها أو يزيد قليلاً كما يقال، تحافظ على بقايا جمال تركي هجين وعلى قرف صاحبها منذ أيام زواجها الأُولى بعد الاستقلال بقليل حين كان عمرها لا يتعدى السادسة عشر، وعلى تدخين الأرجيلة الذي تولعت به بعد الثورة وعزل زوجها من البوليس وسجنه للتحقيق في ملفات بوليس الملك، جرّبتها لأول مرّة في بيت صديقة تركية، يعمل زوجها مقاولاً في طرابلس وتتلهى زوجته برضاعة الأرجيلة.

وجدت في الأرجيلة رفيقاً ودوداً فتركت صديقتها التركية، واكتفت بالأرجيلة من تلك الصداقة.

رحمة التي تجلس الآن بحديقتها منشغلة بأرجيلتها، دون أن تلقي بالاً لغياب ابنها الوحيد لعشر سنوات طوال، ودون أن تفكر في زوجها الذي هجرها وهجر البيت، والذي اكتفى بارسال المال لها مع أحد عماله بداية كل شهر، مما يشعرها براحة تامة دون أن يفارقها الشعور بالقرف كلما تذكرته أو ورد ذكره في حديث، ظلت تتلهى بالتدخين في انتظار صديقها عثمان العائد من تركيا، والذي اتصل بها فور وصوله مطار طرابلس، والذي صبغت شعرها كي يستعيد شقرته، ولونت شفتيها بحمرة تطابق في درجتها لون حلمتيها، وشدت ثدييها عالياً بحمالة سوداء، كي يهتف لها وهو يعانقها «يا قارورة العسل» وكي تقبّله ضاحكة بميوعة بعد أن تقول له باشتهاء فاجر «يا زير اللبن» ليقضيا ساعات طوال يخلطان العسل باللبن ويعانيان معاً بعد ذلك نوبات السعال الحاد.

كان هذا قد حدث لمرّة واحدة منذ عشر سنوات بالتحديد، كانت في الخمسين مثل ما هي الآن وكان عثمان قد قابلها في بيت صديقه التركي وأعتقد أنها تركية للوهلة الأولى، مما جعله يتجرأ ويقبّل وجنتيها كما يفعل الأوروبيون، ومما جعل سنيها الخمسين تستيقظ على عطشها وجوعها دفعة واحدة، ومما جعله يهتف «يا قارورة العسل» لترد عليه «يا زير اللبن» ليضحكا ويتبادلا النكات الماجنة، وليتواعدا ويلتقيا في بيتها، ويمارسا الحب كما يقول الأوربيون لمرّة واحدة ويسعلا بعد ذلك طويلاً، ليسافر بعد ذلك إلى تركيا من أجل العلكة، فلقد كان أحد تجار العلكة المهمين في ذلك الوقت، ليضيع هناك ولتظل تلوك تلك الحادثة وتلك العلاقة العابرة لعشر سنوات طوال.

رحمة التي لم تمر بما مرّ به كل من ورد ذكرهم في هذا السرد من أحداث وتغيرات قبل شروعها في لوك تلك المصادفة التي جمعتها بعثمان، والتي لم تأخذ حياتها ذلك الشكل المغلق الفارغ، والتي ظلت تسير إلى الأمام من الطفولة إلى الصبا والشباب، من العذرية إلى العطش والأمومة، والتي ظلت ورغم تشوفها الخفي لماض لا تدرك كنهه، وإلى رائحة عشب طري ندي، وللارتعاش اللذيذ للجسد العاري إثر ملامسته لتلك الطراوة وذاك الندى التي ظلت رغم ذلك الحنين تشعر بمسيرها إلى الأمام، عبر أنبوب طويل لا ترى منه إلا نهايته المغشية للبصر.

اختفى أنبوب حياتها الطويل وتحولت سنواتها العشر الاخيرة إلى لوك لتلك اللحظات التي قضتها مع عثمان قبل رحيله إلى تركيا.

ظلت تجلس كل يوم في حديقتها منتظرة عودته من المطار كما أكد لها وهو يهم بالمغادرة تلك الليلة، «سأتصل بك فور وصولي مطار طرابلس» وظلت تنتظر لعشر سنوات طوال ذلك الاتصال دون أن يحدث، كانت الأيام والشهور والسنوات تمر وكانت تتسمّر عند تلك اللحظات متلهية دائما بلوك أنبوب أرجيلتها.

الأرجيلة التي ارتبطت حياة رحمة بها لعشر سنوات طوال، لم تكن بالنسبة لليبيين إرثاً تركياً يجمعهم بأشقائهم العرب في نتائج ومخلفات ذلك العهد، كانت بالنسبة لهم مكسباً ناصرياً، ارتبط بأمجاد الحرية والاشتراكية والوحدة، ذلك الثالوث المقدس الذي أذكى فيهم وفي نفطهم نيران الاثارة والبذل والعطاء من أجل الأمة وقضاياها، والذي كانت نتائجه «دون تحقيق أهداف الأمة بكل أسف» أكداس الزبالة وأزمة السكن وتدني مستوى الخدمات الصحية والتعليم وانتشار الرشوة والفساد، فلقد أدخل المصريون معهم إلى ليبيا بعد الثورة وهم يأتون كخبراء لكل شيء بما في ذلك الأرجيلة وشرعوا ينشرونها في حدائق وشوارع ليبيا وحتى في صحاريها، وتحولت في البداية غالبية حدائق المدن الليبية إلى مقاهي أرجيلة تعج بالمصريين والليبيين الجدد الذين بدأوا في تقليد مظاهر الحياة المصرية ومنها رضاعة الارجيلة، كان من أكثر الليبيين تولعاً بالارجيلة ومنذ البداية رواد مصر القدماء للسياحة والدراسة وغالبية مثقفي ليبيا ذوي النزعة القومية يميناً ويسارا، وأعضاء تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي الذين كان زيّهم شبه الرسمي يميزهم عن غيرهم من الفئات، وبالتأكيد رجال أمن الثورة وهم متطابقون في سحناتهم وزييهم مع أعضاء تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي.

كانت الأرجيلة ورغم ارتباطها «حسب ما أعرف بالترك» انجازاً مصرياً ناصرياً، لم يستطع تحقيق ذلك الانتشار الجماهيري وظل محصوراً في أضيق نطاق كما يقال حتى انتصار وانتشار القيم الناصرية «حرية اشتراكية ووحدة» في ليبيا.

رحمة التي ظلت لا تعرف علاقتها بالترك اكتشفت الأرجيلة وعلى عكس غالبية الليبيين عن طريق الترك كما ورد في هذا السرد مما جعلها وبمصادفة غريبة، ربما الوحيدة في ليبيا من بين كل عشاق الارجيلة التي أخذت الارجيلة من مصدرها الأساسي ودونما وسائط، فهل كان ذلك صدفة عادية أم أنه كان نتيجة لعلاقتها الخفية بالترك وتركيا والتي ورغم عدم معرفتها الجيدة بتفاصيلها تعود الى القرن التاسع عشر.

اكتشاف رحمة للارجيلة عن طريق الترك جعل ورغم كل اللوك، حياتها تسير في خط واحد ومستمر من الطفولة إلى الصبا والشباب، من العذرية إلى الأمومة إلى العزلة كما تمر حياة الناس غالباً، حتى لقائها بعثمان الذي أدخل حياتها ودون أن يدري في السياق العام، أعني في سياق العلكة، شغل الليبيين الشاغل طوال السنوات العشر تلك.

عثمان الذي أضحى انتظاره علكة رحمة منذ أن غادرها إلى تركيا كما قال لها في حينها، ظل يسافر إلى تركيا ويعود منها، ظل يغادر ويعود إلى مطار طرابلس دون أن يتصل برحمة في كل المرات، والذي يمر الآن وبعد مرور عشر سنوات طوال، على ليلته تلك مع رحمة أمام بطلنا ويقف إلى جواره دون أن يحس بوجوده في البداية، ثم يمضي لا مبالياً به مبتعداً عن الحديقة وعن الشجرة التي يتسمّر تحتها بطلنا بإتجاه «ادريان بيلت» حيث تنتظره بطلتنا التي أصرّت على أن يلتقيا قرب الحديقة، لتأخذه لمعاينة التمثال في المتحف.

كانت قد ظلت تحدثه عن التمثال وعن سحره ولعنته كلما التقاها منذ أن عرفها «منذ عشر سنوات».. كان التمثال موضوعها الدائم والمكرور، تبدا في الحديث عنه منذ دخولها لاستراحته على شاطيء البحر، وتغادر بعد ساعات طوال دون أن تتوقف عن الحديث عنه، كان التمثال علكتها المفضلة كلما التقت عثمان.

التمثال القابع في السرايا الحمراء منذ القرن التاسع عشر، مهملاً ومنسياً من كل زوارها ومن كل العاملين بمتحفها، شكّل ومع مرور الأيام والشهور والسنوات عنصراً هاماً في وجود بطلتنا، رغم كل محاولاتها للخلاص من لعنته، كانت تحاول وعلى مدار عشر سنوات من عمرها الهروب منه فلقد يحول دائماً بينها وبين ما تحاول الوصول اليه.

كانت تعرف أن مختار كان مثلها ضحية للتمثال وللقرن التاسع عشر وكانت تعرف أن لعنة التمثال تدمّر من يدرك وجوده ملقى بإهمال هناك في أحد ممرات المتحف، كان ادراكه والتولع به، كان الوصول إلى ذلك التناقض بين العينين المغمضتين والشفتين المتلهفتين لقبلة لا تجيء واستسلام الوجه والاندفاع المتهور للجسد بداية الخراب لمن يصل لادراك ذلك.

كانت تريد لعثمان تلك النتيجة دون أن يحدث ذلك فلقد ظل يتجاهل التمثال ويركز اهتمامه على جسدها الصغير، كانت تحس بمس عينيه الحارتين لعنقها ونهديها، ولبطنها، ولفخديها وهي تتحدث عن التمثال وحتى وهي تقف بصحبته أمام التمثال، بل وأحياناً وهي تختبيء خلف التمثال تظل عيناه تحرقان جسدها الصغير بذلك الوهج الشهواني البغيض. كان قد جاوز الخمسين وظل رغم ذلك يحتفظ بشعلة المراهقين الحارقة.

عثمان الذي أخذته فاطمة إلى التمثال مرات عديدة، لم يهتم للتمثال ولم يدخل نطاق إدراكه، ظلت هي التمثال الذي لا يرى غيره من التماثيل، ظل لا يدرك ولا يرى عداها والعلكة، كانت علكته اللذيذة وكان يعتقد أنه علكتها ولذا ظل يردد لاصدقائه ضاحكا «ألوكها وتلوكني» كانت الحياة بالنسبة لعثمان قد أخذت شكل اللوك ومعناه دون أن يعرف أو يقرأ أو يسمع مقولات أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا وربما كان ذلك سر حصانته ضد لعنة التمثال.

رحمة وعثمان وإن لم يلتقيا إلا مرة واحدة إلا أنهما ظلا يلوكان لقاءهما ذاك لعشر سنوات طوال، وظلا ورغم ما يبدو على حياتهما من تكرار يعيشان حياة لا لوك فيها، فحياته ظلت تجارة وسفر وسهر وحياتها، أي رحمة، ظلت زيارات وتسوق وتدخين أرجيلة، لم يصب بلعنة التمثال ولم تصب بلعنة الحديقة، ظلت في بيتها وظل في تجارته، يعيشان كما يعيش الناس في المعتاد، فهل كان ذلك لسنهما أم لعلاقتهما بتركيا والأتراك؟..

القصة

القصة وببساطة تامة على النحو التالي التقى مختار وهو ابن بوليس ملكي سابق بفاطمة وهي ابنة موظف في الأوقاف، صحبة صديقين وصديقتين لهما في الحديقة، ونشأت بينهما علاقة حب ثم هجرته وظل في الحديقة التي التقاها فيها لأول مرّة، ومضت فاطمة تبحث عن حياة مختلفة يكون المال أهم متطلباتها وأهدافها مما يوقعها في شباك الدعارة كل ذلك والبلاد مشغولة تماما بالعلكة التي كانت تركيا أهم مصدّريها لليبيا في تلك الفترة عبر تجار الشنطة. تلك هي القصة وما عداه الهوامش.

التمثال 2..

التمثال المهمل في أحد ممرات السرايا الحمراء، اكتسب فجأة قيمته الوطنية والحضارية على يد أستاذ الآثار العائد للتو من فرنسا بعد دراسته لعلم الآثار هناك وبعد أن أكمل دراسته بتفوق كما يقول وأصدر في ليبيا كتابه الهام كما يقول أيضاً عن النحت الليبي في الفترة الرومانية وبالتحديد فترة فرقة «أوغسطا المتأفرقة».

كان قد تنقل عبر القارة الليبية كما يسمي البلاد، واطلع على غالبية مدنها ومواقعها الآثرية المعروفة، فتجول عبر الاكاكوس ومتخندوش، وصور بكاميرته العجوز كما يسميها صوراً للوحات ما قبل التاريخ هناك، وصعد وعلى غير عادة الباحثين الليبيين جبل زنككرة ليشاهد عربة الجرمنت التي تجرها الخيول والتي اعتبرها كنز جرمة الأهم، والتتويج المذهل لرحلة الحضارة في ليبيا التي إبتدأت كما تظهر آثارها منذ العصر الحجري القديم لتصل إلى صناعة العجلة والعربات التي تجرّها الخيول، وكل ذلك مروراً بالتحنيط الذي يزيد عمر مومياءاته على الستة آلاف عام.

أستاذ الآثار العائد من فرنسا اكتشف التمثال وهو يطارد فاطمة متخلياً عن وقاره الأكاديمي بين التماثيل، كانت وهي تقبل باتجاهه دون أن يعرف من تكون، قد بدت له الكائن الأجمل والأقرب للروح. كان شالها الأحمر ومعطفها الأسود ما لفت نظره لها في البداية، ذكّرته ببنات فرنسا وأعتقد إنها إحدى بنات كلية الفنون والدراسات للرسم والنحت، مما جعله يلحق بها وبناديها «يا آنسة» ورغم عدم توقفها أو حتى التفاتها له واصل ركضه خلفها صاعداً الدرج إلى الدور الأول بالمتحف، ولم تتوقف هناك فمضى خلفها حتى توقفت أمام التمثال، وقف إلى جوارها مندهشاً لاستغراقها في تأمل التمثال وأجزم في داخله أنها طالبة نحت مما جعله يقول لها «تدرسين النحت» ودون أن ينتظر تعليقها أردف «أنا أيضاً متخصص في تاريخ النحت» التفتت إليه باندهاش وأدركت وبمجرد النظر في عينيه أنه يشتهيها وأنه مولع بجسدها الصغير وليس بالنحت كما يدّعي.

«لا.. أنا أدرس تحوّل الرجال إلى تماثيل» قالت له وهي تنظر اليه بجرأة أقرب الى الوقاحة والتفسخ، وأخذ لوكها يتباطا وارتفع صدرها عالياً وهي تضع يديها في نصفها، تجمّد منذهلاً وأحسّ بأن جسده ورغم الضجيج الذي تصاعد داخله قد أخذ فعلاً وضع وشكل تمثال، أحسّ أنه يتحول حقاً إلى تمثال.

انسحبت من أمامه وتركته وجهاً لوجه مع التمثال، تابعها بنظره رغم تسمر جسده وهي تبتعد عنه وعن التمثال، يرف شعرها الأسود على كتفيها الصغيرين ويبدو شالها الأحمر، نهر دم يتدفق بين شعرها وكتفيها.

كانت تبتعد وكان يتسمر أمام التمثال، وكانت السرايا الحمراء تغلق عليه أبوابها أو هذا ما أحسّه مما جعله ينتفض ويبتعد عن التمثال مسرعاً هابطاً درج السلالم باتجاه بوابة الخروج.

توقف أمام السرايا الحمراء مقابلاً للساحة الخضراء، دون أن يبحث عن ذلك التقابل والتضاد الذي يثيره الاسمان «الحمراء والخضراء» فيه دائماً كلما خرج من السرايا الحمراء وواجهته الساحة الخضراء، كلما غادر عالم النحث والتماثيل والآثار الى عالم الناس والزحام والعصر، عالم الساحة الخضراء.

كانت قد اختفت وسط زحام الساحة الخضراء، واختفت ملامحها من ذاكرته تماماً أو أنها اختلطت بملامح التمثال، مما جعل التمثال الأكثر حضوراً في داخله، «وكي لا نذهب بعيداً في هذه الحذلقة الروائية « كانت قد تحولت، فجأة، وكي نتخلص من وجودها في هذا السياق، بالنسبة له، الى ذبيحة لابد أنها سقطت بمجرد خروجها من المتحف إلى الشارع وتمّ حملها إلى مستشفى من ثم إلى مشرحة ومن ثم إلى قبر، إنها وككل التماثيل تموت حين تغادر المتحف، تلك قناعته التي رسختها فيه دراسة الآثار المتخصصة جداً والتي تعمل على عزل تلك التماثيل بعيداً عن الآن وذلك لدراستها ودراسة عصرها بعيداً عما تلا ذلك العصر، وفعل ذلك مع التماثيل.

التماثيل وكما تمثالنا كائنات حية وإن بدت جامدة، لها تاريخها الخاص الذي يبدأ بعد أن يرفع النحّات إزميله عنها، تقيم علاقات مع الأمكنة وتتأثر بتلك الأمكنة فتعطيها أمزجتها، وتتفاعل مع الناس وتقيم معهم علاقات خاصة جداً ورسمية جداً ومحايدة جداً، بل تصل الحالة إلى إقامة علاقات حب مع بعض الزوار تصل إلى حدّ التقبيل والمداعبة، وتصل أحياناً إلى الخصام وحتى الكره والانفصال.

التمثال القابع في السرايا الحمراء منذ القرن التاسع عشر، والذي وكما أشرنا سابقاً، عبر مع ليبيا أزماناً تهدد فيها وجوده، وكما أشرنا أيضاً، بالفناء، والذي لم يعرف ومنذ ظهوره للوجود على يد نحّات أعتقدنا أنه أسير ايطالي في القرن التاسع عشر وسنرى بعد قليل أن أستاذ الآثار العائد من فرنسا يحاول أن يثبت أن النحّات الذي أنجز هذا التمثال في القرن التاسع عشر كان رجلاً من ليبيا، أسره الطليان لعشر سنوات طوال، تعلم فيها النحت، ونحت تمثالاً للاقطاعي الايطالي الذي عمل كعبد عنده فأطلق الايطالي سراحه وأعاده إلى طرابلس، ليسجن هنا في السرايا الحمراء بتهمة صناعة الأصنام، ولينحت هذا التمثال تمادياً في الغيّ ليقطع الوالي التركي رأسه، وليظل التمثال في غياهب السجن وحيداً لا يعرف بوجوده أحد إلاّ حارس أخفى التمثال جيداً وأخذ يتسلل كل يوم ليتأمل جمال امرأة التمثال.

قُلنا التمثال القابع في أحد ممرات السرايا الحمراء كان وكغيره من التماثيل، كائناً حيّاً ولد في القرن التاسع عشر، لنحّات مجهول، ظل الجميع يعتقدون «جميع من عرف التمثال» أنه نحّات ايطالي أسره الليبيون في القرن التاسع عشر، ويقول أستاذ الآثار العائد من فرنسا، إنه لنحّات ليبي أسره الايطاليون لعشر سنوات تعلم خلالها النحت، ولد ومنذ البداية «أعني التمثال» بخاصيتين متناقضتين هما الاستسلام والتهور.

كانت النعومة والعنف، التسمر والاندفاع، اللذة والألم، الملائكة والشياطين، الأنوثة والذكورة. إن كل المتناقضات التي يولّدها غياب الحرية بإمكاننا العثور عليها فيه، ولا يدرك كل ذلك إلا من أدرك وجود التمثال، وهم قلة على أية حال.

هذا التناقض الذي يحكم طبيعة هذا التمثال، كان النتيجة المنطقية لطبيعة صنع هذا التمثال والظروف التي أدت إلى وجوده، فلقد جاء إلى الوجود كنتيجة لحاجات متناقضة، عانى من فقدان بعضها ومن وجود بعضها المزعج صانعه.

كان ظلام سجن السرايا الحمراء، وخيوط النور التي تتسلل من كوّة صغيرة قرب السقف، كان البرد والرطوبة، وكان الحرُّ القاتلُ والرطوبة المقرفة في الصيف، كانت الشهوة العارمة لجسد الأنثى وكان رعب العجز، كانت الرحمة الربانية التي طال انتظارها وكان السخط العارم على القدر، كانت كل هذه المتناقضات وعشرات غيرها ما أنتج هذا التمثال المتناقض الأمزجة والآهواء.

كان التمثال وحتى دخول الايطاليين طرابلس واكتشافهم له، يقبع زامّاً شفتيه منتظراً كل صباح خيوط النور التي تسقط على شفتيه مانحة إيّاه قبلةً دافئة، ويتألم زامّاً شفتيه اثر برد الليل ورطوبة الشتاء. كان جسداً يندفع متهوراً باتجاه النور والدفء وكان وجهه يستسلم لدفء النور، كان يتسمر لاهثاً خلف سراب النور والدفء ليصنع ذلك المزيج الغريب بين موناليزا دافينشي وداود مايكل انجلو.

حين أخرجة الايطاليون من قبو السرايا الحمراء، راق مزاج التمثال وأقبل على الحياة الجديدة، حياة النور والدفء، وأظهر لمن التفت إليه كل المودة، كان مغتبطاً للوجود الجديد حيث العيون غذاء وجوده ومبرره. كان التمثال وكغيره من التماثيل قد وجد ليشاهد، الحياة بالنسبة له وفي الدرجة الأولى عيون وخيال وعواطف مشاهدين وإلا أصبح خارج الحياة كتمثال.

جعله مزاجه الرائق ورغم صفاء تفاصيله في تلك الفترة يشعل في من انتبه لوجوده نيران الشهوة العارمة للمرأة والجنس والاغتصاب. كان استسلام الوجه وتشوف الشفتين لقبلة ظلت ورغم الوجود الجديد لا تجيء، وكان اندفاع الجسد، ونفور النهدين كان ذلك التناقض فعلاً أنثوياً حقيقياً، يوقظ في الرجال ذلك الاندفاع الأهوج للاغتصاب، ذلك الفعل الجنوني الذي تثيره «الدعوة الصريحة للأنثى وتمنعها في نفس الوقت».

كان التمثال وفي تلك الفترة يقدم وبسهولة تامة لمن يدرك وجوده المرأة الممكنة المستحيلة، المحسوسة والتي لا تطال. كان فكرة الأنوثة وقد تجسدت للعيان كما يقال، مما يجعل من يدرك وجوده يجنّ به، كان قادراً ودونما قصد على تحويل الحلم والمثل إلى شيء متعين محسوس. كان نموذجاً للعاهرة المتمرسة في فنون الحب وكان الخجولة المستسلمة!! كان بطلة بئر الحرمان قبل صدور بئر الحرمان بقرن كامل!!

التمثال المهمل في أحد ممرات السرايا الحمراء منح كل ذلك لمدركي وجوده من الايطاليين والليبيين والانجليز والامريكان وأدى بغالبهم إلى الموت أو الجنون، كان آخرهم بطلنا المتسمّر تحت المطر لعشر سنوات طوال.

التمثال ومذ خروجه من القبو المظلم، عرف حياة الدفء والنور، وأحسّ بالدفء الانساني الذي افتقده في القبو منذ موت صانعه. كان الأفراد الذين ينظرون إليه ويتأملون تفاصيله يمنحونه تلك اللذة العارمة لذة الجدوى.

النحّات الذي أعطاه هذا الشكل الأنثوي المبهر لعيون الرجال والنساء، ومدّه بذلك التدفق المستمر للتردد الأنثوي الفاتن، كان رجلاً حسّاساً ومزاجياً، تحكمه الشهوة العارمة لجسد الأنثى التي تصل إلى الرغبة في التدمير والاغتصاب أحياناً ويحكمه أحياناً أخرى ذلك الوله الروحي ببرأة واستسلام الجسد الأنثوي، ذلك الاستسلام الفاتن الذي يجعل الأنثى ملاكاً جديرًا بالعبادة والتقديس.

كانت تلك المزاجية الحادة وذلك التناقض قد كبرا فيه إثر حياة السجن، تلك الحياة المختلفة والقادرة على اشعال شرارة الفن والعبادة والجريمة والكفر في الكيان الواحد وفي نفس الوقت كان قد عانى في السنوات الأولى للسجن نيران الجسد المهدد بالزوال، تلك النيران التي كانت تكفي لاخصاب ولتدمير وحرق ألف أنثى.

كانت الأجساد الأنثوية تحتل حياته كاملة، كان يتحسس نهود عرفها وأخرى لم يعرفها من قبل وكان يمسّد بطوناً وأفخاداً وأردافاً، وكان وهو ينام وهو يأكل وهو يشرب لا يرى ولا يحسّ إلا ذلك الجسد الأنثوي الطاغي المستبد الذي أحتل حياته كاملة والذي يتربص دائماً للانقضاض عليه واغتصابه، كان الجسد الأنثوي في سنوات سجنه الأولى يبدو متكبراً طاغياً ومتعجرفاً، كان الامتناع والرفض رغم الاغواء ديدنه معه طوال سنوات سجنه الاولى.

بدا بالنحت من أجل تدمير ذلك الجسد الطاغي، كان بحاجة للامساك به وتهشيمه، وكان النحت الإمكانية الوحيدة لذلك.

مع انغماسه في النحت تغير مزاجه وبدا الجسد طيّعاً ليّناً، وتحولت تلك الرغبات في التدمير والاغتصاب إلى لمسات ناعمة وحنونة، كانت تفاصيل الوجه والشعر، وليونة الملمس التي اكتسبها الجسد كله قد انتقلت به «بالنحّات» إلى شهوات أخرى لعل أبرزها كانت شهوة الذوبان أنه يبلغ غلمته بعد سنوات طوال من المصارعة والتهشيم والتمزيق بالأظافر والأسنان ويذوب في ذلك العصير الشفاف من الشهوات الثقال لتدوم تلك الغلمة حتى موته في ظلام قبو السرايا الحمراء.

طوال سنوات الغلمة ظل النحّات يعيش حالة التحليق الحر في فضاءات لم يعرفها من قبل حتى تلاشى كل شيء وظل التمثال يقبع هناك وحيداً، كان وككل التماثيل المهملة الوحيدة المنسية قد عانى ولسنوات طوال غياب العيون التي تشكّل بالنسبة له المعنى الأول للوجود.

ظل يقبع متسمّراً يندفع جسده هامّاً بالقفز بعيداً وظل وجهه يتطلع زامّاً شفتيه منتظراً قبلة لا تجيء، كان ينتعش قليلاً بسقوط أشعة الشمس على وجهه كل يوم وكان يتوتر ويحاول القفز عالياً خارج ظلام قبو السرايا الحمراء.

حين اكتشفه الجنود السيشليان في القبو، تعلّق في البداية بمكتشفه ولكنه ما أنفك أن هرب منه إلى جندي آخر بدت نظراته إليه أكثر شهوة واشتهاء، دخل مع ذلك الجندي الايطالي لعبة الاغتصاب والتدمير، فكان يريه كل ما يشتهي الجندي في الأنثى، وكان يقصيه ببرود التماثيل المتسمّرة في الشوارع والساحات مما جعل ذلك الجندي يحاول كل ليلة اغتصابه وتحطيمه دون أن يستطيع فعل ذلك.

كانت نعومة ملمسه وتلك الاستدارات الخفيّة تحت ذلك الملمس الناعم ما يمتص جنون وهوس الجندي يجعله يحلق في فضاءات اللذة إثر المداعبة الخفيفة الناعمة له. كان قادراً على امتصاص العنف الأول بالنهدين النافرين وبالحلمتين المتوترتين وبالعنق الطويل الأملس.

التمثال لم يستطع أن يحمي السيشلياني من الموت، كانت رصاصة رفاقه التي اخترقت رأسه وهو يجلس مستمّنياً أمامه، قد أنهت علاقة للتمثال لم تدم طويلاً.

علاقة التمثال بالعساس الليبي لم تدم طويلاً أيضاً، فلقد ابتعد العساس عن التمثال واختفى، لم يكن العساس قادراً على الاستمرار في لعبة الاشتهاء والممانعة، كان التردد الأنثوي الكامن في التمثال، قد أصابه باحباط شديد فأبتعد بحثاً عن تمثال آخر.

مرّت علاقات كثيرة على التمثال، كان غالبها عابراً وسريعاً، وكان بعضها صاعقاً ومدمراً ولم تستمر علاقة التمثال بكائن بشري إلا ببطلينا، استطاع خلالها التمثال أن يتمكن من الإثنين ويهيمن عليهما بتردده الأنثوي، فتسمّر البطل مكتسباً ذلك المظهر الخارجي للتمثال، وظلت البطلة تركض خلف سراب ليلها الطويل متشوفة لقبلة لا تجيء.

أستاذ الآثار العائد من فرنسا، ظل يتردد على التمثال كل يوم منذ أن اكتشفه وهو يطارد بطلتنا كان يبحث في التمثال، ليس عن فاطمة فقط، كان يبحث وباخلاص عاطفي كبير عن النحّات الذي أنتج هذا الفعل الأنثوي الغريب.

كان ومنذ البداية على قناعة تامة بأن التمثال ليبي، وأنه نتاج معتقلين على ضفتيّ المتوسط، ايطالي وليبي، شمالي وجنوبي.

كان يعرف أن العلاقة بين الضفتين ظلت المعتقلات من مظاهرها الهامة، وظلت كذلك التماثيل.

كان التمثال القابع في السرايا الحمراء مهملاً ومنسياً والذي اكتشفه إثر مطاردته لفاطمة والتي يبدو أنها على علاقة غريبة به، يلخص على نحو غريب وخفي تلك العلاقة «علاقة الضفتين»، فكان وبوضعه الحالي، يقف مستنداً إلى جداره الخاص يحاول القفز باتجاه الشمال، مما يجعله أسيراً ايطالياً في ليبيا، وكان انشداده للجدار، الذي يشكل قاعدته والمادة التي نحت منها، دون أن يتم فصله عنها، ليظل أشبه بوليد لم يقطع حبله السرّي،أسيراً ليبياً في ليبيا تقيّده الصحراء، ويتطلع للبحر.

كان وعبر دراسته للنحت في ليبيا فترة فرقة اوغسطا وقبلها قد لاحظ بعض تلك الملامح التي يحملها هذا التمثال وأبرزها الانشداد إلى الكتلة، عدم قطع الحبل السرّي، ليظل التمثال مشدوداً إلى كتلته لا يستطيع الفكاك منها إلا بتهشيمه وتدميره.

كانت الخشونة وعدم الاتقان من صفات النحت الليبي في تلك الفترة، كان ينشدّ إلى تقاليد النحت الفينيقي الساذجة والمستعجلة. الفنيقيون كانوا بدواً رُحّلاً يركبون جِمَالَ البحار.

وبدت الصفة الأخيرة تنفي ليبية هذا التمثال فهو متقن وشديد النعومة.

الانتصاب في الفضاء لم يكن من صفات النحت الليبي، كان وعلى عكس النحت الروماني في ليبيا في تلك الفترة من القرن الثاني عشر وحتى القرن الرابع للميلاد ينحت في الصخر، يظل التمثال وحتى بعد الانتهاء من نحته وأخذه لشكله النهائي عالقاً بالمواد التي صنع منها، إن الرحم والمشيمة يتمسكان بالوليد إلى الأبد ليظل يجرّهما حتى بعد الموت.

أستاذ الآثار العائد من فرنسا يعتقد أن لذلك علاقة بالفرد والقبيلة في ليبيا، حيث يظل الليبيون مشدودين إلى قبائلهم، يظل الواحد منهم يجرّ الرحم والمشيمة حتى الموت.

أستاذ الآثار وعبر رحلاته في شرق البلاد وغربها، في شمالها وجنوبها، بحثاً عن آثار النحت الليبي، من «اسلنطه» بالجبل الاخضر وحتى «قرزة» ببني وليد، من الكاكوس جنوباً وحتى ترهونة شمالاً، لم يعثر على تمثال ليبي واحد يقف منتصباً في الفراغ دون أن يكون وسط كتلة أكبر منه، غالباً ما تكون جزءاً من جبل أو من كهف، أو من حجر كبير.

أستاذ الآثار العائد من فرنسا لا يذكر تمثالاً ليبياً واحداً يختلف عن هذا الملمح عدا تمثالين من القرن الرابع للميلاد ينتصبان بأحد أودية بني وليد، حيث يقف رجل ليبي بعباءته الليبية ممسكا بفرمان تنصيبه حاكماً لقرزة من الحاكم الروماني بلبدة، وتمثال آخر لسيدة ليبية ترتدي الرداء الليبي وتربط رأسها بعصابة لازالت نساء المنطقة الوسطى بليبيا يلبسنها حتى اليوم.

التمثالان المتشابهان في الانفصال عن الكتلة، كما التماثيل الرومانية في تلك الفترة، يعبران وكما يعتقد أستاذ الآثار العائد من فرنسا عن وضع الحكام الليبيين التابعين للحكم الروماني وتشبههم بعاداته وفنونه.

رغم التشبه بالنحت الروماني إلا أن التمثالين يظلان ليبيين، وذلك عبر الخشونة وقلة الإتقان كما يرى أستاذ الآثار العائد من فرنسا.

لم يبحث عن فاطمة اطلاقاً بعد تلك المقابلة الوحيدة، بل إنه لم يلتفت لها منذ ذلك اليوم رغم أنه ظل يلقاها قرب التمثال، كانت بالنسبة له مجرد خطوة باتجاه التمثال، لم يولع بها ولم يشدّه إليها ذلك التردد الأنثوي، كان رجل تماثيل حقيقية ورغم كل شيء فيها لم تكن تمثالاً.

انغمس في البحث عن صاحب هذا التمثال الذي لم يشك ومنذ الوهلة الأولى في أنه رجل من ليبيا، رغم انعدام النحت في ليبيا في تلك الفترة من التاريخ، فلقد كان القرن التاسع عشر قرن فنون ليبية أخرى غير النحت.

عثر على أسماء بعض الليبيين الذين تعلموا الرسم بأشكاله الأوربية من خلال علاقتهم بتركيا ودراسة بعضهم في الأستانة التي كانت تضجّ بتيارات الأوربة ولكن صاحب التمثال لم يكن من بينهم، كان غالبهم قد اكتفى بالرسم ولم يرد في كل الوثائق أن أحدهم دخل سجن السرايا الحمراء.

لجاء الأستاذ إلى علاقاته الأوربية للبحث عن أي أثر لليبي نحت أي شيء في ايطاليا في القرن التاسع عشر، وأصيب بخيبة كبيرة، فلم يعثر على أي شيء بل كان وفي كثير من الأحيان مثار سخرية ليس من الأوربيين بل حتى من بعض الليبيين الذين حدثهم عن الموضوع.

كان التمثال الملقي باهمال في أحد ممرات السرايا الحمراء قد أوشك أن يدمر حياة أستاذ الآثار العائد من فرنسا المهنية والعلمية، فلقد كان وبعيداً عن كل أصول البحث العلمي يعتمد في فرضيته بليبية هذا التمثال على بعض الملاحظات غير الدقيقة والمشاعر الوطنية المتضخمة.

ترك كل شيء، البيت والتدريس والأصدقاء وظل يقف كل يوم ولساعات طوال أمام التمثال دون أن يلتفت لتعليقات الزوار والعاملين بالمتحف، بل وصل الأمر ببعض العاملين أن لقّبوه بالتمثال 2، فلقد أصبح جزءاً من الممر الذي يقبع فيه التمثال، ثم بدأوا يتناسون وجوده رغم الازعاج الذي كان يسببه لهم ذلك الوجود.

كانت فاطمة تعرف ما حلّ به دون أن تهتم لمصيره وما آل اليه وضعه.

أستاذ الآثار العائد من فرنسا، وبعد شهور من اليأس، تجدد أمله وتجددت الحياة فيه، إثر عثوره، في أحد سجلات السرايا الحمراء التي قلبها عشرات المرات دون أن يعثر فيها على شيء يفيده، على نص حكم بالخروج عن المِلّة وعبادة الاصنام، لرجل في الأربعين من عمره، ضبط وهو يصنع فخاراً على هيئة بشر، ووجد ببيته أصنام لنساء، وبعض الرسومات لنساء عاريات وبعض المجسمات للأرض على شكل كرة وحُكِم بالاعدام.

بهذه الوثيقة، ترسخت قناعة أستاذ الآثار بأن التمثال لهذا المحكوم بالاعدام، دون أن يجد أي دليل يربط بين هذا الرجل وهذا التمثال بشكل قاطع، ليظل الأستاذ رغم كل اكتشافاته وفرضياته عاجزاً عن كتابة ونشر أي شيء عن هذا التمثال.

الحديقة 2..

الحديقة التي ظل يتسمّر بها «مختار» بطلنا لعشر سنوات طوال، والتي ورغم الاهمال الظاهر كانت بؤرة اهتمام مؤسسات وقطاعات مختلفة من المجتمع، والتي أعطاها تسمّر بطلنا فيها تلك الأهمية، وجعلها مسرحاً لتحولات واهتمامات اجتماعية هامّة، والتي ظهرت منها كتب ودراسات وتحقيقات صحفية وأعمال للمسرح والموسيقى والفنون الشعبية وعدد لا يحصى من الدراسات الأكاديمية، والكثير من البرامج الإذاعية المرئية والمسموعة، كانت ورغم كل ذلك وكما كان بطلنا، هامشاً شبه منسي، ينطلق منها الجميع لتتحول بعد ذلك إلى شيء منسي فلقد حولها تسمّر بطلنا فيها هامشاً لذلك الوجود، ثم تحولت وبطلنا معها إلى هامش لا قيمة له في دراسات أستاذ الفلسفة العائد من فرنسا، لتتحول بعد ذلك وعلى يد أستاذ الاقتصاد العائد من امريكا ومعها بالتأكيد بطلنا ومعهما أستاذ الفلسفة وطلبته، يتحولون إلى هامش أيضاً منسياً ولا قيمة له في دراسة أستاذ الاقتصاد، عن العلب الفارغة وتطور الاستهلاك في ليبيا، ليتحولوا بعد ذلك جميعاً بمن فيهم أستاذ الاقتصاد وعلى يد مخرج المسرح العائد من فرنسا إلى هامش منسي ولا قيمة له في عمله المسرحي الوحيد.

الحديقة التي كانت وكما أشرنا، منطلق الكثير من التحولات والأفكار الهامّة، ظلت مهملة ومنسية، تتكدس بها أنواع شتّى من النفايات، وتغصّ ممراتها بالزبالة، وتعجّ بأنواع شتّى من البشر ولا يلتفت لها أحد، حتى القصص والحكايات التي يستقيها كتّابها ورواتها منها «من الحديقة» كانت تتجاهلها وإن اضطر كتّابها أو رواتها لذكر مكان قصصهم وحكاياتهم فانهم يصفون غالباً مكانا يختلف في كل شيء عن هذه الحديقة.

الحديقة التي عانت التجاهل والاهمال رغم أهميتها في كل منجزات الحداثة في ليبيا، «من تأميم شركة النظافة الى قصائد النثر» اكتسبت قيمتها الوطنية على يد رجل البيئة العائد للتو من امريكا بعد غياب دام عشرين عاماً أو يزيد، كان الرجل متحمّساً وعاشقاً للبيئة ورغم فشله الذريع في التعليم في امريكا، فلقد عاد دون الحصول على مؤهل أو لقب، يفتح له أبواب العمل والحياة في ليبيا، رغم كل هذا استطاع وكعائد من امريكا أن يقنع الكثيرين بالعمل معه، وأن يقنع بعض الجهات بتبني مشروعه الذي راق للكثيرين. بدأ رجل البيئة نشاطه من الحديقة، فنظم حملة نظافة، تطوع فيها الكثير من شباب المدينة لتنظيف الحديقة من أكوام الزبالة، وزودتهم بلدية طرابلس، بالمعدات اللازمة، كالمغارف والفؤوس والسيارات التي حملت أكوام الزبالة وألقت بها بعيداً عن المدينة.

الحديقة انتعشت إثر مجهودات رجل البيئة بالتأكيد، وأخضرّت أشجارها المتبقية، بل وبدأت بعض الزهور في التفتح.

رجل البيئة العائد من امريكا، استطاع وبسرعة فائقة أن يقدم عملاً ملموس النتائج، مما جعله يبرز سريعاً كأحد الشخصيات العامة فصار ضيف البرامج الإذاعية المفضل، وصار نشاطه يحتل مكاناً بارزاً في الصحف، بل شهدت الصحف والبرامج الإذاعية انعطافاً هاماً إثر اهتمامها بالبيئة والحدائق.

استعادت الحديقة مظهر الحدائق التي افتقدته لسنوات طويلة، وتكونت جمعية أهلية للبيئة، كان من ضمن أعضائها الرسام الذي حاول رسم بطلتنا كما يرسم الرسامون الأوربيون موديلاتهم «وهي عارية» والذي ورد ذكره في هذا السرد، وكان أيضاً من ضمن أعضائها أستاذ الاقتصاد العائد أيضاً من امريكا، بالإضافة إلى مخرج المسرح العائد من فرنسا وأستاذ الآثار العائد أيضاً من فرنسا، إلى جانب بعض رجال التجارة التي كانت لا تزال عملاً غير مشروع، وبالتأكيد بعض رجال الأمن المتخفين في وظائف عامة لها علاقة بالحدائق والزهور.

في الاجتماع الأول للجمعية بدأ الأعضاء متباعدين وكل يغنّي على ليلاه، فأستاذ الاقتصاد كان يرى ضرورة استبدال أشجار الحديقة الموروثة من أنظمة الاقتصاد الراسمالي بأشجار مثمرة كالتفاح والرمان والبرتقال والنخيل، لتصبح الحديقة جنّة الشعب ذات القطوف الدانية، يركض فيها الأطفال، ويلعبون وهم يأكلون التفاح والرمان والبرتقال والرطب الجني، وتموّل الحديقة بما يؤخذ من روادها من ثمن تذاكر رمزي.

أحد أعضاء الجمعية وهو رجل أمن متخف في وظيفة أو مهنة منتج زهور، ويملك مزرعة لإنتاج الزهور والورود، وأستطاع وفي زمن قياسي أن يكوّن ثروة لا بأس بها من بيع الزهور لمناسبات الدولة، اقترح فتح أكشاك لبيع الزهور في الحديقة للمواطنين وذلك سيحل مشكلة قطع الأزهار التي ستعاني منها الحديقة بالتأكيد، إذا لم تلبي حاجة رواد الحديقة لتبادل الزهور، وأقترح أيضاً إقرار غرامة مالية لمن يقطع زهرة من الحديقة.

الرسام اقترح إقامة معارض بالحديقة، وتخصيص جزء منها كمرسم مفتوح للمواهب والرسامين وخاصة الأطفال، ولاقى الاقتراح القبول المبدئي بالتأكيد.

اللجنة لم ترفض أي اقتراح من أعضائها بما في ذلك اقتراح العروض المسرحية التي اقترح المخرج المسرحي إقامتها بالحديقة، ولكن أيّاً منها لم ينفذ بإستثناء مقترح بيع الزهور ودفع الغرامات على قطع الزهور، فلقد أقيم في اليوم التالي لإجتماع اللجنة كشك الزهور وشرع في البيع، وضبط جهاز أمن الزهور عشر مخالفات، دفع كل واحد من مرتكبيها دينارا.

أستاذ الآثار وهو عضو في الجمعية أيضاً، لم يلق اقتراحه بنصب التمثال المهمل في السرايا الحمراء بالحديقة، ليعرف الليبيون تاريخهم وانتاجهم الجمالي القديم القبول، مما جعله ينسحب من الجمعية، معتبرا إيّاها جمعية سمسرة، لا تهتم بالجمال والثقافة والتاريخ.

الحديقة ورغم احتجاجات أستاذ الآثار على برامج الجمعية، دبّت فيها الحياة وشهدت بعض الاهتمام، فعاد إليها عمال النظافة، وبدأ بعض العمال في سقاية أشجارها وأعشابها، وتغير روّادها ولم يبق من مظاهر ماضيها سوى بطلنا المتسمّر فيها تحت المطر.

كانت الحديقة التي وكما ورد في سردنا هذا سابقاً، قد مرّت بمراحل وأطوار مختلفة، وعبرت ومع ليبيا أزماناً تهدد خلالها وجودها بالفناء ولكنها ورغم كل ذلك، ظلت حديقة، بها أشجار وأعشاب وأحياناً زهور، ظلت مكاناً يفضّله العشاق والشعراء في بداياتهم، ويلجأ إليه الغرباء المفلسين للراحة والنوم، وتلوك فيه العاهرات العلكة حتى اصطياد الزبون.

الحديقة التي كانت تتكيء على ادريان بيلت، سابقاً وتتكيء على شارع البلدية الآن، بدأت وبفضل مجهودات رجل البيئة، تستقبل العائلات على غير العادة، فلقد بدأت العائلات وبحثاً عن مكان نظيف آمن تأتي إلى الحديقة هرباً من رطوبة وحرارة البيوت الخانقة في الصيف.

الحديقة وعبر تايخها القديم ومنذ أن أجبر الحاكم التركي ملاّكها على بيعها له، ليحوّلها إلى منتزه خاص به، لم تعرف إلاّ القليل من الليبيين عبر ذلك التاريخ، فلقد كانت مكاناً شبه محرّم على الليبيين، ربما لم يدخله من الليبيين في ذلك الوقت إلاّ بعض الراقصات والعاهرات، وبالتأكيد القوادين والطبالين والدجالين المتخفين في زي صوفيين وبعض الشعراء الشعبيين المتكسبين ببيع المديح.

كانت الحديقة وبلغة الاعلام الليبي المعاصر «وكراً للفساد بحق».

أولئك الليبيون كانوا يأتون ويمضون بحيث لا يمضي الواحد منهم أكثر من ليلة في ذلك المنتجع الباشاوي، عدا مطربة ظلت تغنّي في الحديقة عشر سنوات طوال. لا أعرف سبب تردد هذه العشر سنوات الطوال في مواقع وأزمان هذا النص.

المطربة التي عرفها وهام عشقاً بها وبصوتها كل من دخل هذا المنتزه، كانت من الجنوب الليبي، من «فزان» وحملت معها ألحان وكلمات فزان إلى طرابلس لتؤنس بها وحشتها في طرابلس، بعيداً عن الاهل والأحباب، الذين غادرتهم هرباً من الفقر والجوع.

كانت المطربة الفزانية التي لم تعرف من طرابلس إلاّ المنتزه «الحديقة» وعانت من الرطوبة والبرد والرعب الذي ظلت تبعثه فيها أصوات البحر، تغنّي كل ليلة تقريباً أغانٍ تغرق الحديقة والبحر وطرابلس حنيناً وألماً ويأساً. كان الغناء الفزاني قادراً على جعل طرابلس والحديقة تسحّ دموعاً حتى الصباح.

الفزانية التي ظلت تغنّي في الحديقة عشر سنوات طوال، لم يعرف منها غالبية من سمعوها إلاّ صوتها الرخيم الحزين فلقد ظلت تغنّي من وراء حجاب بأمر الباشا صاحب المنتزه.

هذا الحجاب جعلها أشبه بالاسطورة في ذلك الزمن فشكلها المجهول لمن يستمعون لها، أطلق خيالهم جميعاً ليشكّل كل واحد منهم لها صورة خاصة به.

كانت في خيالاتهم السمراء الخمرية والقمحية والسوداء، وكانت الطويلة والقصيرة، وكانت النحيلة الرشيقة والمكتنزة، وكانت لدى الكثيرين منهم البدينة فلقد كان غالبهم يفضلون البدينات.

في طريقها إلى طرابلس، كانت المغنّية الفزّانية امرأة عادية للغاية بالنسبة للذين رافقتهم الرحلة من فزان، كانت واحدة من سبع نساء يصاحبن تلك القافلة، ربما بدت الأقل قدرة على لفت أنظار رجال وحتى نساء القافلة في البداية، ولكنها وعلى عكس بقية نساء القافلة، كانت الوحيدة التي لم تكن جارية للبيع في أسواق طرابلس، فلقد كانت حرّة، وتنتمي لاحدى العائلات التي لولا الفقر لما تشتت أفرادها، فبقى بعضهم في واحتهم يصارعون الجوع يوما إثر يوم ورحل بعضهم شمالاً وبعضهم الآخر جنوباً.

المغنّية الفزّانية حين وصلت مرزق، وأدركت أنها تمضي حقاً إلى البعيد إنطلق غناؤها لتتوقف القافلة منذهلة لتلك اللوعة وذلك الشجن الذي لا يصدر إلا عن كائن قادر على بسط أجنحة الحنين والطيران بعيداً بالرجال والنساء والقافلة كل الى حيث يحن.

كانت وهي تغني تسدل على وجهها طرف ردائها الأحمر وتمضي كشفق ينتحر والقافلة تتبعها ماضية باتجاه الشمال هارباً غناؤها نحو الجنوب.

صوت المغنّية الفزّانية أحتفظ بتلك الخاصيّة فظل قادراً على حمل كل إلى حيث يحنّ. ظل يحمل البدو إلى نجوعهم وأبناء الواحات إلى واحاتهم والأهم يحمل العشاق إلى احضان حبيباتهم.

زبيدة الفزّانية وصلت طرابلس كمهاجرة تبحث عن لقمة العيش كما يقال، ولكنها وبعد وصولها بيومين تحولت إلى جارية لا تملك من مصيرها إلاّ حق الغناء والتعبير عن ذلك الحنين وتلك اللوعة، دون أن يراها أحد من مستمعيها، فلقد اكتشف أحد تجار القافلة سحر غنائها من وراء طرف ردائها الأحمر وأوصى الباشا أن تغنّي من وراء حجاب، فذلك يجعلها أكثر سحراً.

بالحجاب أخذت الفزّانية في كل مخيّلة شكلاً جميلاً ومختلفاً، وسبب شكلها خلافات ومشاجرات بين رواد منتزه الباشا، وروى الكثيرون قصصاً عن علاقات حب ومواعيد غرامية معها، رغم أن زبيدة الفزّانية لم تعرف من الرجال إلا الباشا.

أحد عشاق زبيدة الفزّانية كان مغنّياً من طرابلس، استمع لها من وراء الحجاب بالتأكيد، وفتنه صوتها، وسعى لرؤيتها والاستماع لها بشكل مباشر، ولكن الباشا رفض ذلك بشدة وسمح له بالجلوس إليها والحديث معها والاستماع لغنائها من وراء الحجاب، ولم يمنحه من الميزات إلا الجلوس أمام حجابها وحيداً، لتجلس خلف الحجاب وحيدة أيضاً.

رغم الحجاب كان المغنّي الطرابلسي الأوفر حظاً من بين عشاق زبيدة الفزّانية، فلقد بادلها الأحاديث واستمع لها وعرفها، بل كان بامكانه ورغم الحجاب أن يتعرف إلى شكلها دون معرفة تفاصيله، والأهم أنها عرفته وتبادلت معه الأحاديث عن الغناء الفزّاني والطرابلسي وغنّت له أغانٍ لم تُغنّها لأحد في طرابلس غيره، وغنّى لها أغان لم يغنّها لأحد في طرابلس غيرها، كان الغناء حوارهما الدافي المؤنس في ليالي طرابلس.

الباشا ظل يراقب ما يجري بين زبيدة والمغنّي الطرابلسي مستمتعاً من وراء حجاب آخر، وبتسامح غريب لم يعرف عنه من قبل حتى اطمأن المغنيان وأمتدت يدها لتلامس يده من وراء الحجاب عندها انطلقت خناجر من أمكنة مختلفة وفي لحظة واحدة لتنغرس في مقاتل مختلفة من جسد المغنّي، لينهار أمام عينيها ميّتاً تحت الحجاب الذي تمزق وأنهار إثر سقوط المغنّي العاشق عليه، لم تصرخ زبيدة ولم تنبس ببنت شفة، بل لاذت بالصمت حتى ماتت خارج الحديقة وحيدة دون أن يعرف أحد أن البكماء التي ظلت تتسمّر عند أبواب الحديقة كانت زبيدة الفزّانية التي سحر غناؤها طرابلس والتي ظلت الطرابلسيات يرددن أغانيها عبر عشرات السنين، كلما ضاقت بهن الأمكنة وأحسسن بالرغبة في الطيران بعيداً.

الحديقة التي عرفت اشجارها وعصافيرها وباشاواتها وجواريها وضيوف صاحبها الباشا صوت زبيدة الفزّانية، أطلقت وبأمر الباشا كلابها على جثة زبيدة لتخفيها تماماً، دون أن تستطيع الكلاب ولا الباشا إخفاء حنين زبيدة للواحات وللرمل وللنخيل، الذي ظل يتردد حتى اليوم بأصوات أجيال لا تعرف عن زبيدة شيئاً.

بعد هذه القصة الحزينة عرفت الحديقة نساء أخريات كثيرات، انتحر عدد منهن متدلياً من اشجارها، وتم دفن عدد منهن في ترابها دون معرفة حتى أسمائهن، حتى أن الحديقة صارت ورغم مظاهر البذخ في تلك الحقبة من تاريخها معتقلاً ومقبرة للأنوثة، مما أزعج الباشا الثاني الذي ورثها عن والده الذي أسسها كمنتجع لذائذ وأنس وقرر أن يحوّلها إلى منتج لسلالات بشرية جديدة.

فكرة الباشا الثاني أنتجت ورغم قسوتها جماعة بشرية جديدة إمتازت بجمالها الغريب على طرابلس، فأنتجت سودا بعيون زرقاء وأنوف دقيقة، وانتجت شقرا بشعر عكر وشفاه كبيرة. أنتجت شقراوات بنهود ممتلئة وأرداف وافرة وسيقان نحيلة. وانتجت زنجيات بسيقان ريّانة ونهود صغيرة وأفخاذ وأذرع طويلة، لقد كانت ورغم قسوتها وعدم إنسانيتها فكرة حولت الحديقة الى معمل تهجين بشري غريب.

كان الباشا الثاني يشرف على تلك العمليات بنفسه فكان يسلم الشقراوات للزنوج والزنجيات للشقر، فيعيش كل زوجين معا لمدة أربعة أشهر كاملة، ثم يتم فصل الأزواج وفرز الحوامل من النساء عن الأخريات وإعادة التجربة للواتي لم يحملن مع ذكور آخرين حتى يتم الحمل وهكذا عمل متواصل، ليل نهار حتى صارت الحديقة في عهد الباشا الثاني مزرعة جوار وعبيد مختلفين وأسعارهم غالية.

الحديقة وفي عهد الباشا الثاني صارت قادرة على تمويل نفسها رغم ضيقها بسكانها الذين سورتها زرائبهم الصغيرة.

كان الباشا الأول قد مات قتيلاً على يد ضابط تركي عرفت الحديقة زوجته قبل أن تعرفه وقبل أن تروّع أصحابها فعلته، كانت «للا نسيمة» تأتي إلى الحديقة من حين لآخر، وكانت أثيرة لدى الباشا، فكان وبمجرد وصولها إلى الحديقة يترك الجميع ويتفرغ لصحبتها، كانت تركية صهدتها شمس طرابلس، وأغرم بها الباشا حتى الجنون ولم يكن ولع الباشا بها سراً على أي من سكان المنتجع الباشاوي «الحديقة» فلقد صار الباشا ومنذ اللقاء الثاني معها يسكر حتى الفقدان، ويطاردها عبر المنتجع حتى يمسك بها ويعريها ويمتلكها على العشب.

كان ضحكهما ولهاثهما وصراخها يسمع عبر الحديقة ومن كل سكانها، دون أن يستطيع أي من السكان التفوه بكلمة أو التعبير عن أنه رأى أو سمع ما كان يجري بين الباشا وللا نسيمة لذا فإن أيّاً من السكان بما في ذلك الحراس إنتبه في البداية في تلك الليلة المشؤومة لصراخ للا نسيمة وهي تهرب بعد أن قتل زوجها الباشا، لم ينتبه الحراس لما حدث إلا حينما رأوا الضابط وهو يطارد زوجته «للا نسيمة» وهي عارية فأردوه قتيلاً ليعثروا بعد ذلك على الباشا قتيلاً على العشب وهو عار إلا من طربوش على رأسه.

هربت للا نسيمة عارية تلك الليلة من الحديقة واختفت عن الأنظار وعثر عليها في العام الرابع للاحتلال الايطالي ميتة.

للا نسيمة اختفت عن الأنظار ما يزيد على الستة أعوام قبل العثور عليها ميتة. حياة للا نسيمة خلال تلك السنوات ظلت مجهولة للجميع، رغم معرفة طرابلس كاملة بها وبقصتها. للا نسيمة لم تغادر طرابلس كما أعتقد البعض، فلقد ظلت وحسب ما كشفت امرأة بعد وفاتها بسنوات تعيش غير بعيد عن الحديقة، كانت خارج أسوار طرابلس وبالتحديد في بيت صغير صحبة بحار، عثر عليها ليلة الحادثة عارية، وظنها جنية انتظرها زمناً طويلاً، فلقد ظل ومنذ دخوله البحر صحبة والده وهو مراهق صغير يحلم بجنية تخرج من البحر لتهبه السعادة والثروة. ربما تأخرت ولكنها جاءت أخيراً، هذا ما فكّر فيه وهو يراها تقف وحيدة وعارية، هو لم يتخيلها تأتي عارية، ولا تصور أنه سيجدها هكذا تنكمش على نفسها باكية كطفل أضاعته أمه.

ظل يجلس أمامها لساعات طوال يتأملها غير مصدق أنها إنسية، ورغم رعبها وبكائها الحار رغم بؤسها الظاهر إلا أنه لم يصدق إنها إنسية، فما بالك بكونها «للا نسيمة».

تركها وحيدة في الغرفة التي تعوّد النوم فيها، ونام في الغرفة المجاورة، وظل يسمع نشيجها حتى الصباح. لم يتبادل معها كلاماً ولا سلاماً، فلم يكن ذلك ممكناً، فلقد ظلت تبكي وتبكي وأدرك بعد محاولات عديدة لجعلها تتكلم أو تأكل أن

كل محاولاته عبثاً لا طائل منه. ظلت على ما هي عليه أربعة أيام كاملة ثم قالت له وهي تأكل وجبتها الأولى في بيته «أنا نسيمة» فقال لها «للا نسيمة» فضحكت بمرارة وعادت لصمتها دون أن تتوقف عن الأكل.

أقنعته بعد شهر بالذهاب إلى بيتها لمعرفة مصير ابنتها الوحيدة التي تركتها للخدامة حين خرجت لمنتزه الباشا تلك الليلة المشؤومة، لم يذهب إلى البيت بل تسقّط الأخبار عن بعد وعرف أن الخدامة لا تزال بالبيت، ومعها الطفلة وهي على وشك الزواج بتاجر من الجنوب. ظلت تتابع أخبار ابنتها على هذا النحو دون أن تستطيع حتى الذهاب لرؤيتها ولو عن بعد، واطمأنت بعد فترة من القلق أن الخدامة وحتى بعد زواجها وانجابها لأطفال لم ولن تتخلى عن الطفلة.

تزوج البحار بللا نسيمة وعزلت نفسها تماماً عن كل الناس، مكتفية به وبالبيت، حتى قصف المدافع الإيطالية لطرابلس، التي دمرت البيت وقتلت الزوج، لتخرج من تحت الأنقاض ورأسها ينزف دماً وهذياناً إلى الحديقة تتجول فيها ليلاً وتختفي تحت أنقاض بيتها نهاراً حتى يعثر عليها في العام الرابع للاحتلال ميتة.

أربع سنوات أمضتها للا نسيمة قبل موتها، وهي تتجول وسط الحديقة ليلاً وتهذي بالبحار وبالإبنة وبالزوج القتيل وبالباشا القتيل الذي ظلت تراه يركض عبر الحديقة عارياً الا من طربوش على رأسه.

الحديقة وبعد المواجهات الشرسة بين الليبيين والايطاليين صارت ورغم تفتح أزهارها الحارّة التي ارتوت بدماء الليبيين والايطاليين مكاناً مهجوراً وموبؤا يخاف الناس حتى المرور عبره، فبدت كعروس مهجورة ليلة زفافها، كانت ورغم زينتها الحارّة، رغم عطورها الفواحة مكاناً منفراً ومثيراً للخوف يعجّ بالأشباح طوال ليله بل وفي ظهيرات صيفه الحارقة، كانت أشباح الليبيين القتلى وكذلك الايطاليين، وكان صراخ المغتصبات والمنتحرات وكان أنين الجرحى، كانت رائحة الموت والعذاب تحتلها رغم زينتها ورغم عطورها الحارّة اللافحة.

الحديقة بدا حرثها وقلع زهورها وأعشابها وأشجارها المتبقية كل ذلك احتفالاً بنزع ثوب حدادها المطرز الفواح حين دخلها العمال بإبلهم وحميرهم ومحاريثهم وفؤوسهم ليؤسسوا الحديقة الايطالية فيها على أنقاض منتزه الباشا التركي، كان الايطاليون وبعد القضاء على المقاومة قد شرعوا يعدون طرابلس للطلينة وكانت الحديقة من مظاهر الطلينة. الحديقة وفي زمنها الايطالي أخذت شكل ودور الحديقة حقاً فقبل ذلك لم تكن في يوم من الايام حديقة كما نعرف الحدائق وكما ورد في سردنا هذا.

الحديقة ومع شكلها الجديد كحديقة حقيقية عرفت عاملين جدداً ورواداً جدداً، وكان الايطاليون هم الرواد الاكثر فالحديقة كانت قد تأسست لأجلهم ولم يكن مسموحاً لليبيين بدخولها إلا بعض الاستثناءات في البداية.

الأب 2..

لم يكن الأفندي عمر كما أشرنا في هذا السرد سابقاً ابن طرابلس فلقد وصلها وكغيره من البدو والريفيين باحثاً عن فرصة للعمل، والتحق مباشرة وكغالبية أبناء البدو القادمين إلى المدينة بالبوليس الذي شرع الانجليز في تأسيسه، لترثه بعد الاستقلال المملكة. الأفندي عمر لا يعتبر نفسه إرثاً انجليزيا، فهو يؤكد دائماً أنه ابن المملكة، واحد حرّاسها المخلصين الذين ورغم التغير لم يتخلى عن الإيمان بها وببركة ملكها رغم انهياره المدوي.

الأفندي عمر والذي وكما أشرنا سابقاً ينعزل ومنذ خروجه من السجن في مزرعته التي تنتج الدجاج والبيض، والذي تولع بجيل جديد من بنات الهوى، والذي تخلى عن كل التزاماته العائلية فلم ير زوجته منذ أكثر من عشر سنوات، وطلب من ابنه ألا يأتي إلى المزرعة واكتفى بارسال المال له ولأمه بداية كل شهر مع أحد العاملين معه والذي تولع ببطلتنا منذ لقائه الأول بها دون أن يعرف علاقتها بابنه المتسمّر في الحديقة.

كان قد رأى فيها ومنذ اللقاء الأول بينهما ضالته التي ظل يفتش عنها لسنوات طوال ووجدها فجأة أمامه لحماً ودماً وحياةً، كانت بطلتنا مرحلة جديدة من عمره ومن تغيرات تذوقه للذائذ الأنوثة.

كانت فاطمة بشعرها الأسود الفاحم وبقصر قامتها وبعينيها السوداوين وبنهديها الصغيرين المتوثبين قد بدت له منبع شباب وعافية هو في أمسّ الحاجة إليه، كان وبمجرد جلوسه إلى جوارها لأول مرّة قد أحسّ بذلك التدفق الدافيء لذلك النبع الذي غمره وأنعش الدم في عروقه لم يكن بحاجة لتقبيلها ولا لمعاشرتها، كان بحاجة لالتصاق بها فقط وارتشاف ذلك الدفء، تلك الموجات اللذيذة التي كانت تداعب خلايا جسده واحدة واحدة لينهض وكأنما يستيقظ من نوم طويل ويغرق في لذائذ أنوثة لم يعرفها من قبل.

كان قد عرف إناثاً كثيرات دون أن يعرف هذه الانوثة فلم يكن بحاجة للسكر ولا للرقص ولا للتعري كي يمتليء بلذائذ اللمس وما ورائها، كانت فاطمة قادرة على منحه ذلك الامتلاء وتلك الخفة في الآن نفسه.

صام وبمجرد أن عرفها عن كل اللذائذ الأخرى، ليس طاعة وإنما اكتفاء وأمتلاء.

كان يجلس أمامها ساكناً كما كان يجلس تحت شمس الشتاء مرتشفاً دفئها ما أستطاع جسده إلى ذلك سبيلاً، كان حين تختفي للحظات عنه ينكمش بقوة كي لا يهدر من دفئها الذي عبَّ شيئا.

انتصر على نوبات السعال وصارت دقات قلبه أكثر وثوقاً وانتظاماً وصام عن الكلام في حضورها، صار الكلام بالنسبة له مذبح العواطف والأحاسيس واكتشف العشب الذي ظل يخاف لمسه أو النظر طويلاً إليه منذ حادثة اطلاقه للنار على المتظاهرين وتهاوي الأجساد على عشب الحديقة.

أخذ ينهض مبكراً كل يوم ويمضي حافياً عبر المزرعة متحسساً تلك الوشوشات التي كانت تلتقطها روحه عبر قدميه الحافيين ويجلس على ربوة عند طرف المزرعة الشرقي منتظراً الشروق، ليتمدد بعد ذلك على العشب الندي زافراً من داخله آهات تلك الاجساد التي تهاوت على العشب إثر اختراق رصاص البوليس لها ويبكي.

الدجاج والأفراخ الصغيرة وحتى الحمام تحيط به، ويتسلق بعضها جسده الملقي على الأرض وينقر وجهه بمناقيره دون أن يبدي مقاومة أو حتى تأفف قد يزعجها.

كان الأفندي عمر يمضي آخر مراحل العمر عبر فاطمة مستكيناً وهادئاً.

فاطمة والتي واظبت على التردد على المزرعة والجلوس أمام الأفندي عمر كالتمثال دون تبادل الكلام أو حتى النظرات معه، أدركت أنها ورغم اختلاف الأفندي عمر عن ابنه مختار تعيش نفس التجربة، وإن اختلفت بعض التفاصيل، فلقد أحسّت ومنذ الأيام الأولى أن التمثال لازال يطاردها، ليخرّب كل شيء، كان الأب يتحول إلى سكينة التمثال التي ظلت تهرب منها منذ مغادرتها وتركها لمختار متسمّرا وسط الحديقة.

كان التمثال وكما أحسّت قد سكن الابن وهي تغادره هاجرة إيّاه، وسكن الأب وهي تصل إليه.

الأفندي عمر والذي أدرك أن كل شيء يتغير، وأن لكل عمر ولكل عصر لذائذه التي كان يتعقد أنه وعبر هذا العمر الطويل قد اختبرها جميعاً، يكتشف الآن وعبر فاطمة ورغم صغر كل شيء فيها أنه لم يعرف منها إلاّ القليل. كانت الحياة ولذائذها بالنسبة له لا تزيد عن النجاح في الحصول على ما يريد المرء ويكتشف الآن أنها وفي الدرجة الأولى خسران يسجله المرء غروب كل يوم وأن رحلة المرء وأن بدت مشرقة هي رحلة باتجاه الغروب لا نستطيع التراجع منها وإن حاولنا.

كان الرقص وكان الاكل وكانت الكأس وكان الجنس محاولات يائسة حاولها جميعاً محاولاً التسمّر عند لحظة واحدة، وكان يخرج كل مرّة وقد خسر كما ينبغي له أن يفعل.

كان الأفندي عمر يعيش شروق غروبه الهاديء وحيداً ومستسلماً دون أن يستطيع التسمّر في لحظات غروبه ذاك.

كانت فاطمة قد جرّته بفتنة الحياة إلى مرافيء النهايات الهادئة التي لم يتخيل في يوم من الأيام الوصول إليها، كان يمتلي سعادة متطهراً من كل أوهامه السابقة.

كانت قد غابت عنه أيام بعد لقائه الأول بها، وأحسّ بفقدان لم يجرّبه من قبل فكان ينسى من يختفي من أمامه مباشرة، لم يكن يهتم لغياب أحد، كانت المرأة الموجودة أمامه هي المرأة الوحيدة بالنسبة له، كان لا يفتش عن شيء فيهن

عدا ارتعاش وانتفاض أجسادهن البضّة ومظاهر اللذة التي تكتسيهن تحت لمس أصابعه وكن لا يختلفن كثيراً في ذلك إلاّ في بعض التفاصيل التي لم يكن يهتم لها، لذا لم يكن يهتم لمن منهن تكون معه ويتلذذ بتلذذها.

فاطمة لم تكن مثل النماذج التي عرفها من النساء، كانت شيئاً مختلفاً، كانت كائناً رغم كل شيء صغيراً وبريئاً. هو لم يلمسها ولكن لذائذ اللمس الخفيف سرت في جسده بمجرد وقوفها أمامه، أحسّ بذلك التنمّل الحار يسري عبر عروقه، وأحسّ ورغم بعدها عنه بأنفاسها تلفح عنقه.

على خلاف الأخريات كانت لذائذ حضورها تبقى حتى بعد مغادرتها للمكان، لا يبقى منها شيء محدد بالإمكان تمييزه، ولكن الدفء يبقى.

في لقائهما الأول، أحسّ بإرتباك لم يعرفه مع أي أنثى من قبل، أعتقد أن ذلك كان لأنه لم يكن مهيئا لإستقبال أي أحد ذلك اليوم، ثم إنها صغيرة رغم جرأتها ورغم نهديها المتوثبين.

كانت تكويناً غريباً وشاذاً من التهتك والاندفاع والنزق وأيضاً من الطفولة والبراءة والتردد.

كان ذلك المزيج سرّها الذي ظل يفتش عنه دون أن يجده ثم وجده أمامه هكذا فجأة ودون سابق إنذار كما يقال. كان قد حاول أن يتدارك بمحاولة إقناع نفسه بأنها ليست إلاّ واحدة من بنات الهوى الجديدات الباحثات عن الأموال، بل أنها أقلهن امكانيات وحيلة، فهي ليست جميلة وليست لعوباً وتبدو قليلة الخبرة، لذا نظر إليها بشفقة وهي تنزع معطفها الأسود وتقرّب وجهها منه، وبدت له متسولة تمد شفتيها البرئتين بدل يدها طلباً للحسنات.

في تلك اللحظات بدت له أقرب إلى حفيدة تطلب من جدها الحنون ثمن العلكة.

كانت فاطمة في تلك اللحظات تطلب فعلاً ثمن العلكة ولكنها لم تكن علكة التلذذ والتسلية، كانت العلكة مشروعها الهام والمصيري.

لم يكن الأفندي عمر يعرف معنى العلكة ولا القيمة التي تمثلها ليس لبطلتنا فقط وإنما لمجتمع كامل في تلك الأثناء.

بعد مغادرتها السريعة أدرك ما يكمن فيها من لذائذ وحياة، عابّا بقايا حضورها المذهل.

طلب من غويلية أن تهتم بامرها لأنها كما قال لغويلية «جوهرة».

الأفندي عمر الذي ظل يؤمن بأن النساء جواهر مزيفة وإن ظل بريقها يلمع لسنوات طوال أحسّ هذه المرّة بأنه أمام جوهرة حقيقية.

فاطمة وبعد أن غادرت المزرعة ذلك اليوم، نست الأفندي عمر والمزرعة وانغمست في اللوك والبحث عن زبائن. كانت متحمسة لتحقيق مشروعها المتعلق بالعلكة والتجارة فيها وجمع الأموال من أجل استقلال حقيقي وبناء بيت والبحث بعد ذلك عن الزوج والاستقرار، كان الأفندي عمر بالنسبة لها زبوناً ليس أكثر، ربما يكون زبوناً ممتازاً ومتميزاً ولكنه ما كان ليزيد عن ذلك.

تعرفت في ذلك الأسبوع الأول وبعد الأفندي عمر على مقاول الأسوار الذي لم تعرف اسمه حتى الآن، التقته في مقهى قرب الميناء، جلس إلى جوارها دونما استئذان وطلب قهوته بعد أن صافحها وسألها إن كانت تنتظر أحداً؟

أربكتها جرأته في البداية ثم أدركت أنهم يتصرفون هكذا «بعملية تامة ودونما اهدار للوقت» بالزبون يسأل البنت إن كانت تنتظر أحداً فإن أجابت بأنها لا تنتظر فذاك يعني موافقتها على الذهاب معه لقضاء الليلة معاً.

احتجزها المقاول في استراحته بوادي الربيع ثلاثة أيام كاملة وفضّ بكارتها مقابل ألف دولار وأحسّت بالنجاح رغم الآلام التي عانتها تلك الأيام الثلاثة.

حين عادت إلى الأفندي عمر كانت منهكة لذا أمر لها بالعشاء وتركها تنام. جلس قبالتها طويلاً قبل أن يتمدد إلى جوارها ساكناً تاركاً مسام جسده ترتشف تدفق الحياة حارّة من جسدها كما كان يفعل أبطال «الجميلات النائمات» لياسوناري كاوابانا.

عند الفجر نهض بحذر كي لا يزعج منامها العميق، ومضى على رؤوس أصابعه تاركاً باب الغرفة والبيت وراءه مشرعين، ليتلاشى بجلبابه الأبيض في غبش الفجر الأبيض الفضي وجلس على الأرض في طرف المزرعة، مستمتعاً بوخز نسمات الفجر النّدية الباردة لجسده متحسساً تلك الحبيبات الصغيرة المدببة التي نبتت على جلده فجأة. مع شروق الشمس أخذت الحبيبات في التلاشي وكانت الجميلة الصغيرة تتمطى في فراشه وتمطى هو على التراب وفرّت الزرازير التي اجتمعت حوله الى ذؤابات الشجر.

كانت الجميلة الصغيرة في تلك اللحظات تطرد متمطية آخر آثار إنهاك الليالي الماضية، وتحلم بالتقلب على العشب الطري وسط فضاء أخضر يمتد بعيداً حتى يذوب في زرقة قوس السماء.

الأفندي عمر لم يتبادل معها كلاماً كثيراً حين عاد إلى غرفة النوم ووجدها صاحية تحدق في الفراغ. جلس قبالتها كما فعل في الليلة الماضية وأخذ يتأملها مأخوذاً بذلك التناقض المذهل والغريب بين تلك البراءة والطفولة وذلك النزق والتهور والاندفاع، بين البراءة والاستسلام ذلك التفسخ والوقاحة التي تشهرها كمخالب قطة.

قالت له وهي تجلس في السرير إنها نامت الليلة الماضية بعمق شديد ولم يرد عليها بشيء. وقالت له إنها تعبت في الليالي الماضية كثيراً، وإنها لم تنم إلاّ قليلاً، وإنها الآن على خير ما يرام، ثم نهضت منتصبة على السرير فبدت بالجلباب الابيض تمثال مرمر ينتصب على سريره. ظل ساهماً على كرسيه تحتها ووضعت قدمها الأيمن على كتفه الأيسر وتمسّكت يده اليسرى بساقها الأيسر وارتفعت يده اليمنى ضارعة لها. لم يكن يطلب شيئاً، كان قد اتخذ شكل الجزء المتمم للتمثال المنتصب على سريره دون أن يعرف ما الذي يريده هو وما الذي يريده التمثال.

الأفندي عمر وبعد لحظات من هذا التسمّر تحتها أحسّ بقواه تتلاشى من جسده وأحسّ بذلك الوهج المتدفق من تحت جلبابها الأبيض يخنقه. نهض بصعوبة حتى طالت يده اليمنى نهدها الأيسر تحت الجلباب الابيض وما أن لامس النهد حتى شهق بقوة ثم تهاوى على الأرض منتفضاً كذبيح ومات، هكذا وكما في الحكايات الشعبية مات الأفندي عمر في سطر واحد وظلت فاطمة تقف بجلبابها الابيض كتمثال فاغر الفاه.

غويلية التي كانت تراقب ما جرى دخلت الى الغرفة وحاولت ايقاظ سيدها دونما جدوى، ثم وبعد أن أدركت أنه مات حقاً طلبت من فاطمة أن تساعدها في تمديده على السرير قبل إعلان الخبر.

تلقى الجميع خبر موت الأفندي عمر بهدوء وبرود بل أن بعضهم استغرب أنه لا يزال حيّاً حتى هذا الوقت. زوجته لم تهتم كثيراً بموته وطلبت من العاملين في المزرعة القيام باجراءات دفنه ولجأت إلى محام لإتمام الاجراءات القانونية المتعلقة بالميراث، وأثناء كل ذلك ظل ابنه «بطلنا» متسمّراً تحت الشجرة بالحديقة منتظراً التفاتتها وركضها باتجاهه تحت المطر.

فاطمة «بطلتنا» لم تغادر المزرعة بل ظلت هناك وبطلب من غويلية لأيام وعرفت ومن خلال غويلية، الأفندي عمر، حيث روت لها سيرة المتوفي بتفاصيل غريبة وحدثتها عن ماضيه في بوليس الملك وعن علاقته بالحديقة وتهاوي أجساد الطلبة على العشب إثر اطلاق الرصاص عليهم، أثناء مظاهرتهم ضد الملك والقواعد الاجنبية. غالبية تلك التفاصيل كانت بطلتنا تعرفها من خلال مختار ابنه أو بطلنا المتسمّر في الحديقة منتظراً عودتها اليه.

رحمة

غويلية أدهشت بطلتنا بما روته عن رحمة والدة بطلنا وزوجة الأفندي عمر والتي تقبع منذ عشر سنوات في بيتها بشارع بن عاشور وحيدة، تدخن الأرجيلة كتركية أصيلة. فاطمة لم تكن تعرف أن لأم بطلنا علاقة بالترك أو الأرجيلة، لذا أصرّت على معرفة ذلك بالتفصيل.

رحمة وحسبما روت لها غويلية تنحدر من سلالة تركية من ناحية الأم، فأمها حفيدة تركية ماتت في بدايات الاحتلال الايطالي لطرابلس، تركت ابنة صغيرة ربّتها عائلة ليبية وزوجتها لابنها الوحيد الذي أنجب منها رحمة قبل أن يموت في حرب الانجليز والطليان والالمان في شرق ليبيا، لتكبر في كنف جدّيها حتى يتزوجها الأفندي عمر بعد الاستقلال بسنوات. رحمة المقطوعة الآن من شجرة كما تقول غويلية تعيش وحيدة منذ سنوات فالأفندي عمر هجرها بمجرد خروجه من السجن. غويلية ورغم معرفتها بكل هذه التفاصيل لم تقابل في حياتها رحمة ولم ترها ولو من بعيد.

فاطمة أدركت أن مشروعها الحقيقي والناجح هو مختار رغم كل أوهامها بمجرد معرفتها من غويلية بهذه التفاصيل، فهو الغنّي الذي لا اخوة ولا أبناء عمومة ولا أخوال له، وبامكانها أن تجعله ملكها بالكامل، أن تكون كل شيء في حياته وأن تخطط له كما تشاء.

غادرت المزرعة بعد أن أكدت لغويلية أنها ستعود وأن المزرعة ستستمر كما كانت بل على نحو أفضل. انتظرت لحظات بعد أن طرقت باب بيت رحمة قبل أن تفتح لها الباب، ولم تسمح لها بالدخول في البداية حتى أخبرتها أنها تعرف مختار وأنها جاءت لأجله.

لم تبدِ رحمة تلك اللهفة التي توقعتها فاطمة، عندما قالت لها وهي تدخل الى الصالون إنها صديقة لمختار وإنها تراه كل يوم، مما جعلها تدفع الأمور إلى أبعد ما يمكن وتقول إن مختار يريد الزواج بها. ابتسمت عندها رحمة بشيء من السخرية ثم ردت عليها بكلمة «مبروك» وجلست إلى كرسيها وأرجيلتها مشيرة لفاطمة بالجلوس. فاطمة واصلت حديثها عن مختار وعن تعلّقه بها وتعلّقها به وعن نيتهما في الزواج والاستقرار بالمزرعة، ورغبتهما في أن تكون هي أيضاً معهما كي يتمكنا من خدمتها ورعايتها. رحمة صمتت لبرهة وثبتت عينيها في عينيّ فاطمة قبل أن تقول وببساطة تامة «أنتِ كذابة».

لم تصدق فاطمة ما سمعت في البداية ولكنها وبعد أن كررت رحمة قولها أدركت أنها أمام رأس تركي عنيد. فاطمة ورغم الاستقبال البارد ورغم نظرات رحمة المزدرية لها، تمسّكت بمشروعها وظلت تتردد من حين لآخر على بيت رحمة وتحاول إستمالة الام العنود دون أن تعود لمختار الذي ظل متسمّرا تحت المطر عشر سنوات في إنتظارها.

كانت رحمة قد أدركت أن التي تتردد عليها من حين لآخر، تمسك بزمام ابنها ولا يمكن اطلاقه منها، لذا لانت معها وأخذت تحاول أن تعرفها.

رحمة التي ظلت تلوك ليلتها الوحيدة مع عثمان، اكتشفت أن فاطمة أيضاً لا تتوقف عن لوك العلكة وابنها مختار، كان بامكانها ومنذ لقائهما الثاني أن تدرك ذلك ولن تعرف أنها تلوك مع اللائكين وإن اختلفت العلكة.

كانت رحمة وبعد وفاة زوجها قد تذكرت ابنها الذي نسته لسنوات، كانت فاطمة من ذكّرها به لذا أصبحت فاطمة بالنسبة لها مستقبلاً لا مفرّ من الاستعداد له واستقباله.

رحمة لم تعرف بالتأكيد أن فاطمة وكما هي مستقبل هي أيضاً ماض ارتبط بزوجها وبموته، أنها بالنسبة لها ودون أن تعرف تماماً خروج من ماض وولوج لعصر آخر.

هذا التفلسف المفتعل لتاريخ رحمة وابنها يجعلنا نعود لأستاذ الفلسفة الذي يعيش مرحلة يسار مقاله الشرارة «الوجود العلكة» وهذا الانتقال من يمين تلك المقالة إلى يسارها حدث وكما غالبية الأحداث فجأة وبدون مبررات منطقية، فلقد نهض أستاذ الفلسفة من نومه في أحد الأيام ولنقل يوم وفاة الأفندي عمر مبكراً وفتح شباك غرفة نومه المطل على حديقة بيته الصغيرة ورأى وروداً وقد تفتحت بعد فقدانه الأمل في ذلك غروب اليوم السابق ودون أن يستحم أو حتى يغسل وجهه شرع في كتابة مقاله الهام «الأمل» مفتتحا إيّاه بعبارة ماوتسي تونغ الرنّانة «لتتفتح مائة زهرة».

أستاذ الفلسفة والذي طوى مرحلة ودخل أخرى بجرّة قلم، والذي بدأ بماوتسي تونغ عدو الذباب التاريخي إثر تعلقة بسارتر وذبابه في مرحلته المنطوية كأنما يعبر عن اعتذار تاريخي، ظل يؤجله منذ زمن بعيد في انتظار اللحظة المناسبة، عرف رحمة وهو يعبر من يمين مقاله الشرارة إلى يسارها، كان ذلك في محل تجاري حديث سمح بإفتتاحه لمجموعة من أصحاب الفلوس، ومنحوا حق الاستيراد لأنواع شتّى من البضائع وعلى رأسها العلكة، وورود البلاستيك التي تولعت بها رحمة وزارت ركنها المزدان في المحل التجاري مرّات عديدة لتشتري وفي كل مرّة من تلك المرّات أصنافاً منها وتنشرها في البيت، ليبدو حديقة غنّاء مزهرة.

أستاذ الفلسفة الذي جذبته الورود المتفتحة بذلك الركن بعد أن أبدى اشمئزازه من تزاحم الناس على العلكة بركن الحلويات والمعجّنات رأى في رحمة وردة من الزمن الجميل تتفتح من جديد إثر توفر التربة والمناخ المناسبين.

كان يعرف أن الورود ليست وروداً حقيقية ولكنه اعتبرها «سادراً في تفاؤله الفلسفي» صناعة للجمال من القبح للزهور والورود من النفط.

رحمة التي غطت عطورها في ذلك اليوم الذي التقاها فيه أستاذ الفلسفة على روائح البلاستيك لفت نظرها الأستاذ إليه ببدلته وربطة عنقه، فلقد مر زمن طويل دون أن ترى رجلاً بهذه الأناقة.

انشدَّ الأستاذ إلى تورّد وجهها بين الورود وجذبه عطرها الفواح وأنشدّت هي إلى بدلته وربطة عنقه الأنيقتين وأستل وكأي باريسي أنيق وردة من احدى السلال ومضى إلى الخزينة ليدفع سعيداً ثمنها كي يقدمها لامرأة الزمن الجميل وصدمه البائع بأن ذلك أمر صعب ومعقد فالمحل لا يبيع الورود بالواحدة بل يبيع كل خمسة وورود معا بستة دنانير، مما يجعل تقسيم المبلغ على عدد الوردات عملية معقدة وحتى لو قسم ذلك المبلغ فانه لا يملك قطعاً نقدية صغيرة كي يرجع له الباقي فالعملة الحديدية لا تستخدم عملياً رغم وجودها الافتراضي في الأسعار.

أستاذ الفلسفة وبعيداً عن التفلسف أخرج من جيبه ستة دنانير ومضى بوردته وقدمها إلى رحمة بإنحناءة باريسية وتقبلتها بأناقة تامة مقربة إيّاها إلى أنفها هامسة له «مرسي».

أستاذ الفلسفة الذي ظل يرصد التحولات والإنقلابات في حياة البشرية عبر مسيرتها نحو المصير المحتوم، أحسّ وفي تلك اللحظات بالتحديد وهو يقف أمام رحمة بالتحول الذي يقلب كيانه تماماً، متأملاً نصف الكأس الملآن من الحياة الانسانية، غاضاً على غير العادة عينه الأخرى عن النصف الفارغ.

كان وهو يتأمل رحمة يردد كي لا ينسى كلماته التي سيعتبرها هو أولاً ومن ثَم تلاميذه والمعجبون به بيان مرحلة أخرى من مراحل التحولات الانسانية الهامة «الحياة كأس نصفه ملآن».

كان أستاذ الفلسفة يمتليء في تلك اللحظات وعلى غير العادة بحياة أخرى غير تلك التي ظل يعيشها، فلقد عانى من الفقر صغيراً وعانى التفلسف كبيراً، مما جعله دائماً ينزع لآلآم يصطنع وجودها أحياناً من أجل التفلسف.

كانت رحمة وسط تلك الزهور الإصطناعية قد قدّمت له هكذا وببساطة تامّة بهجة الحياة دفعةً واحدة وكان قد قدّم لرحمة ببدلته وربطة عنقه أناقة الحياة وانتظامها. أستاذ الفلسفة كان يقبل على حياة أخرى غير التي اعتاد وهو يقبل على رحمة حاملاً وردته البلاستيكية، كانت قد مثلت له في تلك اللحظات التاريخية من حياته جزيرة غنّاء وسط بحر متلاطم الأمواج ظل يصارع أمواجه عمراً كاملاً مبرراً تلك المعاناة والآلآم بالمصير الإنساني القاسي الذي كتب عليه كما كتب على من قبله معاناته حتى النهاية.

الحديقة البلاستيكية المزدحمة بالزهور الإصطناعية وسط المحل التجاري ورغم صغرها وضيقها وازدحامها ورغم روائح البلاستيك النفاذة المزعجة بدت لأستاذ الفلسفة ونتيجة لوجود رحمة جنّة عدن التي صنعتها الإنسانية رغم الآمها ومصيرها المحتوم.

أستاذ الفلسفة وعبر رحمة وحديقة البلاستيك الصغيرة اكتشف قدرة الإنسانية على مقاومة قدرها وذلك بصناعة أفرادها لفراديسهم وإن كانت وهمية وسط جحيم الآخرين الحقيقي.

رحمة التي قادت أستاذ الفلسفة من ربطة عنقه إلى يسار سارتر لم تعرف بالتأكيد سارتر ولا المصير الانساني، ولا الفلسفة، كانت امرأة فقدت كل شيء.. الزوج والابن والعاشق ولم يبق لها من الرفاق إلا الارجيلة، تركية دون أن تعرف، ومهجورة ومغدورة دون أن تعرف أيضاً، بل ربما تخيلت نفسها الخائنة الغادرة التي خانت كل شيء وغدرت بكل شيء.

كانت رحمة قد أحسّت في اللحظات الأولى بخجل لم تجربه منذ زمن طويل وهي تستمع لأستاذ الفلسفة وهو يعبّر عن اعجابه الشديد بجمالها وأناقتها، لم تكن تدرك أن في البلاد رجالاً بهذا الذوق الرفيع، فلقد ظلت وطوال عمرها الفائت لا تعرف من الرجال إلا أولئك الذين ينزعون بناطيلهم بعد كلمة أهلاً، بما فيهم عثمان الذي تدرك الآن أنه لن يعود وأن هذا الأنيق اللطيف العاشق هو محطتها الأخيرة.

خرجت معه إلى مقهى وشربت معه قهوة عربية ودخّنت أرجيلة وهو يتأملها غير مصدق أن التي بصحبته من نساء البلاد، أنها رفيقة حقيقية ولن يتركها تضيع منه، لذا عرض عليها الزواج وقبلت دونما تردد.

الرفيقة رحمة كما أسماها أستاذ الفلسفة «رغم كرهه الشديد للشيوعية»، رأى فيها حقا رفيقة درب فريدة في مجتمع يستحيل فيه اتخاذ رفيقة بهذه المواصفات، تشرب النبيذ وتدخن الأرجيلة، وتتحدث عن الجنس والدين والعرب كحفيدة حقيقية لكمال اتاتورك رغم عدم معرفتها بالسيد كمال. ورغم عدم معرفتها بالقراءة، علمانية بالجبلة. إنها سيمون دي بوفوار العالم الثالث كما بدت له منذ اللحظات الأولى للقائهما، أرملة متحررة طروب، وأستاذ فلسفة بحجم سارتر إن لليبيا مفاجأت لا يمكن توقعها!!

لم يناقشا تفاصيل الزواج، ولم يتحدثا بالتأكيد عن المهر، كل الذي يعرفانه الآن أنهما زوجان مختلفان في زمن وبلد مختلفين وأنهما بعد القهوة وتبادل الغزل سيمضيان إلى عش الزوجية ليتحابا كما ينبغي لعاشقين مختلفين ولن يعقدا قرانا، بل سيظلان رفيقين حتى النهاية وفقا لشريعة الاختيار.

رحمة التي تنتقل الآن ومع أستاذ الفلسفة إلى مرحلة أخرى من العمر والتجربة، نست كل شيء مع أستاذ الفلسفة، نست الابن والزوج المتوفي، نست فاطمة ومشروع زواجها بابنها، نست المزرعة، إن الحياة تبدأ الآن.

كانت تحدّق في عينيه غاضة النظر عن حَوَلِه الغريب، وبدا لها الأوسم والأكثر أناقة بين الرجال، إنه المتفرد الذي ظلت تحلم به طوال عمرها الماضي، وشريك لعمرها الذي يتفتح الآن.

«إن الحياة تبدأ الآن» هكذا ظلت تردد في داخلها دون أن تتوقف عن شفط الأرجيلة والنظر إليه.

في تلك الاثناء كانت فاطمة تطرق باب رحمة دون أن يرد عليها أحد، ودون أن تيأس فهي ما كانت لتتوقع التطورات التي حدثت في حياة رحمة، لذا ظلت تطرق الباب دونما كلل وهي واثقة بأن رحمة بالداخل وحيدة كالعادة وستفتح لها الباب.

البطل 2..

الزمن عدو الحب الأول، بل أن الحرب ظلت بينهما مستعرة منذ بدايات الخليقة ويبدو أنها ستستمر حتى قيام الساعة، يحاول الحب ايقاف تدفق الزمن ويكتسح طوفان الزمن سدود الحب الواهية التي يعتبر الفن أهمها وأكثرها هشاشة على الاطلاق.

كان مختار «بطلنا» قد أمضى سنوات عمره الأولى دون أن يعرف تجربة حب حقيقية، ولذا ظل منصاعاً كالغالبية للزمن، مستسلماً لارادته، منسرباً مع تدفقه دونما مقاومة نحو النهايات العادية والمعروفة، كان قد خرج من حضن أمه إلى أحضان المدرسة والشارع، تعلم ما تعلموا، وحفظ ما كان على الجميع حفظه، وحلم كما رسموا له الأحلام، لم يعرف المختلف ولم يطمح لتحقيق غير المتوقع والمشروع، أحبّ الكثيرات وتولعت به الكثيرات وظل يركض خلف النهايات المعروفة، كان أسيراً مخلصاً للزمن، لم يكن قد أحسّ في يوم من الأيام بحاجته لمعاداة ومحاربة الزمن وصد تدفقه القاتل، كان يعتقد أن سريان الزمن يمثل مسيرته نحو غاياته الخاصة، نحو المستقبل الذي يرى فيه بداية الحياة وليس نهاياتها.

لحظة انطلاقها مبتعدة عنه كانت لحظة ادراكه المرعبة للزمن، للاندفاع الإنساني نحو النهاية نحو العدم، كان الحب يُجر مخنوقاً بشالها الأحمر وتتناثر اشلاؤه خلفها، كانت تمضي مع الزمن وكان يحاول التمسك والابقاء على لحظات وجودها الأخيرة معه قبل ابتعادها تحت المطر. كانت لحظات ابتعادها قيامته الصغيرة، التي ظل يجاهد متسمّراً تحت المطر لعشر سنوات طوال، لتأجيل حدوثها ولإعادة كل شيء إلى البدايات والبقاء هناك عند تلك البدايات وتحقيق النصر الإنساني على الزمن، كان تسمّر التماثيل وبالتحديد التمثال الذي ارتبط بها وبه، غايته التي وصلها بتسمّره تحت المطر لعشر سنوات طوال، لم يكن يهتم لشيء آخر غير وجودها، كان وكأي عاشق مهجور قد دخل سراب الليل وأخذ يركض باتجاهها رغم تسمّره وابتعادها، كان التمثال الملقى بإهمال شديد في أحد ممرات السرايا الحمراء قد منحه تلك المزايا المتناقضة، أعني الاندفاع والتسمّر بالضبط كما منحتها العلكة ذلك الاستسلام وذلك التهور والاندفاع، كان قد شرع ومنذ انطلاقها مبتعدة عنه تحت المطر، بمعطفها الأسود وشالها الاحمر في لوك تلك اللحظات تمسكاً بها وصدا لتدفق الزمن الذي شرع في جرفه نحو هوة الظلام والوحدة والمجهول.

التسمّرُ تحت المطر لعشر سنوات طوال كان واقعاً حقيقياً عاشه بطلنا. كان قد ألقى وكما لو كان إلها أسطورياً بعصاه السحرية في دواليب الزمن وجعلها تتوقف قبل أن تدهس حبه الخاص بملميترات قليلة، لم يهزمه الزمن ولكنه لم ينتصر بالتأكيد، فلقد ظلت تبتعد، يرفّ شالها الأحمر على كتفيها الصغيرين ماضية باتجاه الغروب، لقد أوقف الزمن ولكنه لم يرجعه الى الوراء فلقد ظلت تبتعد.

بعيداً عن كل هذا التفلسف المصطنع الذي يركن له كتّاب الرواية لاعطاء عبث حياة أبطالهم معنى ولمنح أنفسهم تلك الوصاية والسيطرة على مصائر البشر وإن كانوا وهميين كأبطال الروايات بعيداً عن كل هذا كان بطلنا يعيش حقاً حياة

التسمّر كالتمثال فلقد ظل في لحظات ابتعادها فعلياً، محاولاً الجمود عند تلك اللحظات، رغم تدفق ذلك الطوفان المرعب الجارف المسمى الزمن.

كانت قد فلتت منه مبتعدة لأمتار، رفّ خلالها شعرها على كتفيها الصغيرين، وتراقص طرف شالها الأحمر على ظهرها، وبدا معطفها الأسود ممحاة سوداء تتسرع في محوها من أمامه.

لا جديد إذن بالإمكان إضافته لما حدث في حياة بطلنا، بعد تسمّره غير اللوك الذي يتورط هذا النص فيه ليأخذ ورغم الحيل الانشائية الكثيرة التي حاولناها للخروج من هذا المأزق الروائي شكل اللوك الدائم الذي يبدو أنه أزليّ.

ولكن ماذا لو جربنا لعبة أو بالأحرى حيلة أخرى؟ ماذا لو جربنا التأتأة؟

التأتأة أيضاً لوك للكلمات وبالتحديد للحروف، وهي تناسب حالة بطلنا وهي أكثر انسانية، ولكن من الذي يتأتيء هل هو البطل أم أنه الزمن؟

تأتأة البطل أمر عادي ومعروف، فلقد كبر بطلنا وهو يتأتيء، وحاولت أمه في السنوات الأولى أن تعالج الأمر وعرضته على أطباء وعدوها جميعاً بعلاجه وفشلوا جميعاً واقتنعت بعد أن تأتأت قدماها على العيادات الخاصة لسنوات طويلة، اقتنعت بأن التأتأة قدر ابنها الذي لا مهرب لها ولا له منه.

التأتأة والتي عانى منها الكثيرون، ليس في ليبيا فقط، بل في كل بلدان وقارات العالم، أخذت بعدها العلمي بعد عودة أستاذ علم النفس من المانيا حاملاً شهادة الدكتوراه في التحليل النفسي وبالتحديد في العزيزين فرويد ويونج.

كان قد تولع بفرويد في السبعينيات وهو طالب بالثانوية العامة، وبدت له الحياة مرآة كبيرة لمقولات فرويد. وبدا له الناس كائنات فرويدية جميعاً، من الفقهاء الى المغنّين والراقصات الخ، واكتشف أن التأتأة التي يعانيها أبوه، ليست إلا تجلّياً لصراع «الهو» و«السوبر إيجو» حيث يصرخ الهو وتكبحه السوبر ايجو.

هذا المهرب الذي نخترعه لهذا النص، بالإمكان الاستمرار فيه فلقد مهدنا، دون أن نعرف في حينها، له حين أشرنا إلى رواية الكاتب المصري الراحل احسان عبد القدوس «بئر الحرمان» الذي أفنى جزءاً هامّاً من جهده الروائي لتطبيق مقولات فرويد على أبطاله أو بالأحرى صناعة أبطال يناسبون تلك المقولات.

وإذن فلا بأس من الاستمرار في التأتأة والعودة لأستاذ علم النفس العائد من المانيا والذي كان يرى العالم من منظور فرويدي، والذي طور تأتأته بعد المانيا لتأخذ وعلى يد «يونج» شكلها الاجتماعي.

التأتأة وعلى يد أستاذ علم النفس العائد من المانيا صارت ناتجاً اجتماعياً وليس حالة فردية. وكل ذلك الأمر لم تكن له علاقة مباشرة ببطلنا لولا قراءة الأستاذ لتحقيق صحفي عن بطلنا المتسمّر في الحديقة والذي صار وكما أسلفنا موضوعاً أثيراً للصحافة الرسمية والصحافة الثورية كل من منظوره.

الأستاذ تحفّز لرؤية بطلنا بعد قراءته للتحقيق الصحفي، وذهب مباشرة إلى الحديقة وتسمّر للحظات أمام بطلنا الذي كان يواصل لهاثه عبر سراب الليل متسمّرا تحت الشجرة، في انتظار توقفها وركضها عائدة باتجاهه، لم ير الأستاذ في البداية علاقة بين بطلنا وبين موضوعه الأثير «التأتأة» ولكنه وبعد سماعه لتأتأة بطلنا بكلمات غامضة توقف وهتف «يوريكا» على طريقة المكتشفين الكبار، أخرج من جيبه مفكرته «التي تعلم من الالمان حملها معه أينما ذهب وتسجيل كل الملاحظات بغض النظر عن اهميتها فيها» وكتب «إنه يتأتيء فعلاً وقولاً.» فلقد كان بطلنا يتأتيء الزمن بتسمّره وكان يتأتيء الكلام، على هذا النحو اكتسب بطلنا مهتماً آخر من الخبرات العلمية العائدة من الخارج، واكتسب تسمّره بالحديقة أبعاداً أخرى، تعود لفرويد ويونج.

البحث عن العيّنات الحيّة لما درسه طلاب العلوم الإنسانية بالخارج، ظل من الأمور المستعصية في ليبيا، خاصة علم النفس، فرغم العيّنات الكثيرة الساعية أمام الدارسين على أقدامها، فإن أيّاً من أولئك الدارسين يمكنه أن يجري دراسة حقيقية على أيّ من تلك العينات.

بطلنا كان فرصة نادرة تتيحها ليبيا لابنائها العائدين من اوروبا وامريكا المتخصصين في تخصصات مختلفة وعلى رأسها علم النفس، كان العيّنة المتاحة والمسموح بدراستها دونما تحفظات، لذا أتاح للفلسفة ولعلم النفس والاقتصاد وأيضاً المسرح والتلفزيون والصحافة، أتاح لها فرصة العيّنة الحيّة القابلة للدراسة دونما تحفظات، أقصد العيّنة ذات المدلولات السلبية، فلقد ظل الكلام عن الظواهر والنماذج السلبية عامّاً ومجرداً، فيقال قوى الرجعية دون قول فلان ويقال الانتهازيون دون قول فلان وفلان ويقال المرضى الخ...

التأتأة وهي فرصة نصّنا للاستمرار والتقدم خطوةً إلى الأمام، هي أيضاً وبعيداً عن أستاذ علم النفس، بداية انهيار نصّنا الهشّ هذا، فهي محاولات للانفلات من وضع التسمّر بداية انهيار التمثال، وانتصار ولو بسيط للعلكة، إن التسمّر بَكَمٌ تام واللوك تأتأة.

بطلنا وبعد تسمّر أستاذ علم النفس إلى جواره، مشجّعاً إيّاه على الكلام وعدم الخجل من تأتأته التي لا ذنب له فيها، فهي وكما ظل يكرر له نتاج تخلف وقمع اجتماعيين يبدأن من الأسرة ويتطوران في الشارع والمدرسة ليغدو هو ضحية لكل ذلك القمع، أحسّ برغبة عارمة ومفاجئة للخروج من ذلك التسمّر والجمود إلى آفاق العلكة حيث الحركة، حيث اللوك والصعود والهبوط حيث هي التي تركته متسمّراً تحت الشجرة لعشر سنوات طوال، كان بطلنا وبإصرار أستاذ علم

النفس يغادر العشر سنوات الطوال من التسمّر ويتأتيء باسمها، كاشفاً سرّه الذي ظل يختبيء خلف تسمّره عشرسنوات طوال، كان ومقاداً بأستاذ علم النفس يدخل الليل متوقفاً عن مطاردة سرابه حيث ظلت ولعشر سنوات تتلاشى وتغيب.

غادر بطلنا الحديقة، ولم يفكر في أمه ولا في أبيه ولا في بيتهم، كانت هي الكائن الذي حاول التمسك به عبر هروبه من سراب الليل بتسمّره هدفه الذي انطلق للبحث عنه، عبر شوارع تغيرت كثيراً عما تركها عليه عند مغادرتها الى تسمّره الطويل.

لم تكن بالمتحف ولم تكن بالتأكيد في الحديقة، ولم تكن هناك تحت أقواس الداخلية حيث تعود أن ينتظرها محتمياً بالمعمار الايطالي من شمس طرابلس الحارقة ومن مطرها العصي.

كانت تجلس بمقهى يعج بأجنبيات وبرجال ليبيين وكانت وحيدة.

اقترب منها دون أن تنتبه له، قرّب شفتيه من أذنها كي يهمس فيها، وغمرته رائحة غريبة، كانت رائحة أنثوية ولكنها لم تكن رائحتها.

انتفضت ملتفتة إليه ونظرت بعينين ما كانتا عينيها.

كانت الأصباغ ورغم كثرتها عاجزة عن اخفاء ذلك الإرهاق وذلك الوجع، وكان قصر القامة الذي ظل يشدّه لها قد بدا ومنذ الوهلة الاولى منفراً إثر البدانة. أدرك أنه ظل هناك عشر سنوات طوال، وأن طوفان الزمن هزمه فيها.

ظنته زبوناً ودعته للجلوس وبدأت في تلاوة شروط السهرة. انتفض واقفاً ومضى مبتعداً يتأتيء بلعنات غير مفهومة.

مضى باتجاه المتحف وهو على ثقة بأن التي بالمقهى ليست هي وأنها هناك تنتظره قرب التمثال، دخل المتحف على عجل واتجه مباشرة إلى التمثال حيث كان أستاذ الآثار يقف وحيث كانت تقف مقابلة لأستاذ الآثار وحيث لم يكن التمثال، اندفع نحوها دونما تحفظ وضمها إلى صدره بعنف تهاوت وتهشم التمثال. وظل يتأتيء بلعنات غير مفهومة.

غادر المتحف لا يدري إلى أين، كانت أقواس الداخلية تقيه شمس طرابلس الحارة، دون أن تخفف من سعيره الداخلي.

كان وحيداً ومتعباً وغريباً يذرع شارع الداخلية جيئةً وذهاباً، دون أن يعرف لماذا.

لم ينتبه له أحد، رغم تأتأة أقدامه بهذا الشارع أياماً وأياما، حتى فاطمة وحتى أمه وحتى دكاترة الاقتصاد والفلسفة والآثار وعلم النفس وحتى الصحفيين ومعدي ومقدمي البرامج الاذاعية لم ينتبه له أحد، كان قد تحوّل إلى ذكرى قد يتذكرها بعض من يعبر الحديقة لينساه بمجرد خروجه منها، دخل وحيداً ومتعباً وهزيلاً ظلام ليل طويل، طويل.

كانت العلكة تتكدس في الأسواق إثر الانفتاح الاقتصادي، وكذلك الشامبو والموز، والمجلات المصورة، كانت البلاد تطوي تسمّره وبانتصار العلكة.